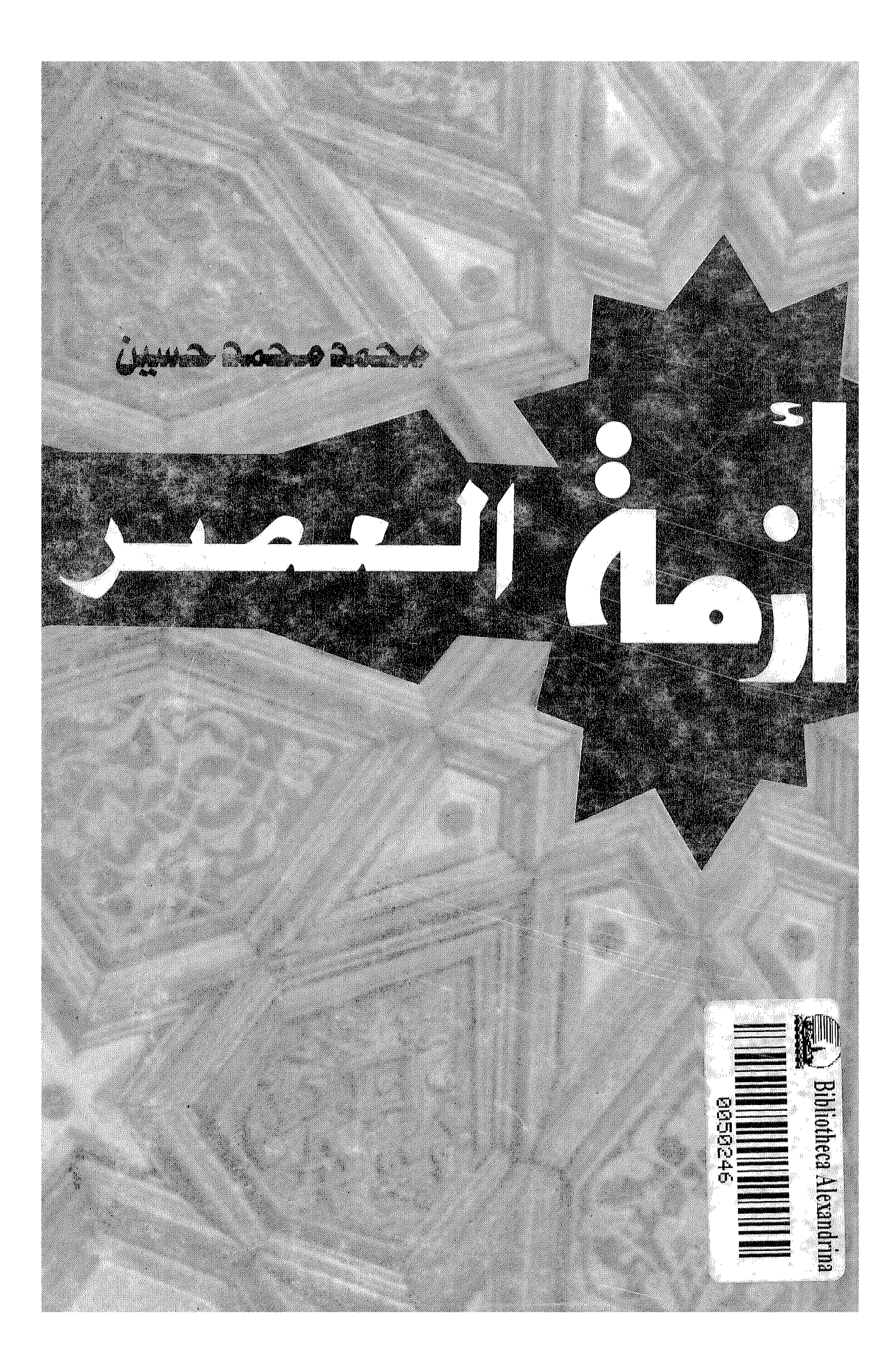
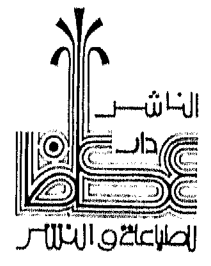

محمد محمد حسين
أزمة العصر

أزمة العصر



أزمة العصر

محمد محمد حسين



جدة ــ طريق الميناء ــ ص . ب ١٤٩٠

الرياض ــ شارع التليفزيون ص . : ٢٩٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، قياما بحقه ، ووفاءً بنعمه ، واستجلاباً لرضاه ، ودفعاً لسَخَـطه • والصلاة والسلام على النعمة المسداة ، والرحمة المهداة ، نبيِّ الله ومصطفاه ، سيدنا محمد بن عبدالله • وبعد ..

منذ ربع قرن ، حين صدر كتاب (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) أشار عليَّ جماعة من الأصدقاء أن ألخّصه فى مختصر يقرِّبه من غير المتخصصين • وكنتُ مقتنعا بما أشاروا به • فالكتاب يقع فى أكثر من ثمانمائة صفحة ، تثقله النصوص الكثيرة والحواشي التى تحيل إلى المراجع وتتقصَّى دقائق المواضيع المتنوعة التى تناولها الكتاب • وهو فى طوله وفى جفاف تناوله لما عالجه من المسائل لا يصبر عليه إلا الباحث المدقِّق الذي تعوّد الصبر وحبس النفس وبذل غاية الجهد فى الاستقصاء •

ومع اقتناعى بضرورة كتابة هذا الملخص المختصر ، كانت تصرفنى عن إنجازه مشاغل شتى وأسباب متعددة ، لعلّ من أظهرها أن مما يَثقُل على أي كاتب أن يعيد كتابة ما كتب ، لأنه لا يجد فى عمله هذا جديدا ينشِّطه ويحفِز هِمَّته ويشبع تطلعه •

ثم إن إحدى الإذاعات العربية دَعَتنى منذ عام إلى أن أُعِد لها ثلاثين حديثا (تدور حول القضايا الأدبية البارزة وموقف الإسلام منها ، مدةُ كل حديث منها فى حدود عشر دقائق) ، فرأيتُ فيما دَعَتنى إليه فرصة مواتية لتحقيق المشروع القديم ، فى الحيِّز الأمثل الذي يناسب غير المتخصصين من القراء ، والذى يلائم طاقات الشباب منهم على وجه الخصوص ، ولا يكلفهم ما يَشُقُّ عليهم •

وقد ساقنى القلم فى أثناء إعداد هذه الحلقات الثلاثين إلى موضوعات تناولتها من قبلُ فى كتب أخرى غيرِ (الاتجاهات الوطنية) ، مثلِ (حصوننا مهددة) و (الإسلام والحضارة الغربية) و (الروحية الحديثة) • ولم يخلُ الأمر من إضافات هنا وهناك ، مما لا بد أن يَعِنّ للكاتب حين يعيد عرض بعض أفكاره •

واخترتُ لهذه المجموعة من الأفكار والموضوعات التى جالت فيها هذه الحلقات اسم (أزمة العصر) ، لأن كل ما تناولتُه هو فى غالب أمره بعض ما يَشغَل أبناء هذا العصر من المسلمين ، مما تتضارب فيه الآراء ، وتختلف فيه المذاهب ، وتثور حوله المعارك • وهو مما أورث أهلَ هذا العصر ، وشبابَهم على وجه الخصوص ، حيْرةً لا يكادون يهتدون فيها إلى وجه الصواب ، إلا من عصم الله ، ممن أضاء لهم الطريق ، فأبصروا الحق أبلج لا يلتبس بشىء • وقليلٌ ما هم •

وقد تركتُ هذه الحلقات كما أعددتُها للإذاعة • ورأيتُ أنها فى قِصرَها أدنَى إلى تحقيق ما استهدفتُه ، راجيا أن أكون قد بلغتُ بها ما كنتُ أرجو وما كان يرجو الأصدقاء • وبالله التوفيق • ولا حول ولا قوة إلا به •

الرياض فى صباح الأربعاء ١٣ من المحرم ١٣٩٩ هـ
(١٩٧٨/١٢/١٣م)

محمد محمد حسين



أزمة العصر ومعركة بين القديم والجديد

أحمد الله تعالى وأسأله التوفيق والسداد • وأصلى وأسلم على سيد ولد آدم محمد بن عبدالله ، صلاة دائمة موصولة عدد من اهتدى به ودخل فى رحمة الله بسببه من خلق الله • وبعد ..

هذه سلسلة من الأحاديث القصيرة تدور حول القضايا الفكرية البارزة التى شغلت أدباء العربية المعاصرين ، دعتنى إلى التحدث فيها إذاعة الرياض ، فسميتها « أزمة العصر » ، وقصدت بذلك القلق الذى يعيشه أبناء هذا العصر ، والشبابُ منهم على وجه الخصوص ، ولا يدرون كيف يخرجون منه . وهو قلق ناشىء عن الصراع الذى يدور فى نفوسهم بين القديم الموروث والجديد الطارىء ، نتيجةً لالتقاء الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية • فأهلُ هذا العصر – وشبابهُم بخاصة – يريدون أن لا يحُرَموا من الإستمتاع بكل ما يستمتع به الغربى ، ولكنهم يقفون موقف القلق والحيرة أمام ما يحرّمه الإسلام من هذه المتع واللذات ، وأمام ما يستنكره المجتمع ويرفضه العرف وتأباه التقاليد من هذه العادات •

وأهلُ هذا العصر يسمعون ويقرءون ما يترامى إليهم من أخبار وأحداث ، وما يجدّ من مذاهب ونِحَل متناقضة متضاربة ، فى السياسة وفى الاقتصاد وفى السلوك ، يتنافس أصحابها فى تزيينها وفى إقامة الحجة على أنها هى السبيل الأمثل لإسعاد الناس وحل مشكلاتهم • وبعضُها يعادى الدين الذى نشئوا على احترامه وتوقيره ، والذى يحترمه ويوقّره كلُّ من يحيط بهم من الأهل والجيران ، فيصفُه بأنه وهمٌ وخداع اخترعه فى زعمهم رجالُ الدين لتمكين قبضتهم من رقاب الناس ، وإحكام سيطرتهم

على المجتمع ، واستغله المترفون والأغنياء لتسكين ثورة المحرومين والفقراء • يسمع الناس ذلك كله لا يحول بينهم وبينه شيء ، ولا تغنى فيه الرقابة بكل أدواتها ، بعد أن سيطرت المدنية الحديثة على الأثير ، واستخدمت موجاته الصوتية والضوئية ، فأفلت من كل القيود ، ودخل إلى كل البيوت ، أصواتاً وصُوَرا •

وسط هذا الخضم من المذاهب والآراء وقع الناس فى حيرة لا يجدون لهم منها مَخْلَصا ولا يهتدون فيها طريقا • يُشفقون من الكفر والانحراف عن طريق الإسلام ، ويطمعون فى نعيم الجنة ويخافون عذاب جهنم ، ولكنهم يعجزون عن دفع أسباب الكفر والانحراف ، ويعجزون عن القطع برأى حاسم يسكنون إليه • وتقصرُ طاقاتهم وعزائمهم عن اختيار طريق وسَطَ هذه الطرق المتشابهة المتشابكة ، يمضون فيه بقدم ثابتة ونفس مطمئنة •

وصِدَامُ المذاهب والآراء أمر طبيعى فى المجتمعات البشرية على اختلافها •وهو سُنَّة من سنن الله فى خلقه • وهو فى أكثر الأحيان يتخذ شكلَ الصراع بين أنصار القديم الموروث من المحافظين ، وبين أنصار الجديد المبتكر أو المستجلَب من دعاة التطور • فهو معركة قديمة جديدة دائمة ، لأنه مظهر من مظاهر الحياة فى المجتمعات البشرية ، ولأن الجمود صفة لا وجود لها فى الحياة • فالحياة حركة • ولو أراد الناس الجمود وقصدوا إليه ما استطاعوه • والذين يُحكِمون إغلاق النوافذ والأبواب فى السلم • يُكرَهون على فتحها فى الحرب • فكل شيء فى الحياة متغير • والناس مضطرون إلى أن يلائموا بين أنفسهم وبين الواقع المتغير ماداموا لا يستطيعون دفعه أو تغييره •

والواقع أن المعركة بين أنصار القديم الموروث وبين أنصار الجديد الطارىء ضرورية لسلامة المجتمع • فالمحافظون يَحُدُّون من طيش المندفعين إلى طلب كل غريب طارىء ، ومن نَزَق الذين يجرون وراء كل طريف برَّاق ، مما يُفقد الحياة ما يلزمها من الاستقرار الذى يحقق الطمأنينة ويمكِّن من البناء • ودعاة التطور يَحُولون بين المحافظين وبين الركون إلى الكسل ، ويُخرجون الجماعات عما قد تصاب به من

التبلّد والجمود والركود ، نتيجةَ العكوف على الموروث وتكرارِه تكرارا آليًا يعطل التفكير والمَلَكات الإنسانية • وذلك لأن دعاة التطور يُجْبرون المحافظين على الدفاع عن أنفسهم ، فيحتاجون فى هذا الدفاع إلى التسلح بأسلحة خصومهم ودراسةِ ما يستطرفون من مذاهب • فى حين أن مهاجمة المحافظين لدعاة التطور تضطرهم إلى الحدّ من غُلَوَائهم ، وتنبُّه المجتمع إلى مواطن الضعف والشرّ فيما يستجلبون • ومن الطبيعى أن يوجد متطرّفون فى كلٍّ من الجانبين ، ولكن البقاء فى كل ذلك للصالح دائما ،وللصالح وحده • تلك هى فطرة الله التى فطر عليها الخَلْق كلَّه،وناموسَه الذى لا يتبدل ، والذى اقتضى أن يختلط الحق والباطل ، وان تتباين مسالك الناس وتتنوع مذاهبهم وتجاربهم ، باختلاف طبائعهم وبيئاتهم • وذلك لكى ينقل بعضُهم عن بعض ، ويتعلم بعضُهم من بعض • والله سبحانه وتعالى يقول (يا أيها الناسُ إنّا خَلَقناكم من ذكرٍ وأُنثىَ ، وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ لتعارَفُوا) • ومن عدل الله سبحانه وتعالى ودقيق حكمته وخَفِيِّ ألطافه أن هذا الصراع الدائم بين الحق والباطل ، وهذا التبادل المستمر بين المعارف والتجارب ، لا يتكشف آخر الأمر إلا عن النفع والخير • وما أروعَ تصوير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكبرى حين ضرب لها مَثَلين : أولهما من السيول التى يختلط ماؤها الصافى بالرمم والجيف والأقذار والصخور والأوحال ، ثم لا يبقى على طول الطريق وتوالي المنعَرَجات إلا الأنهارُ العذبةُ الفياضةُ بالخير والبركات • والثانى من المعادن التى نتخذ من بعضها الحُلىّ كالذهب والفضة ، ونتخذ من بعضها الآخر الأدواتِ والأمتعة كالحديد والنحاس • فهى لا تُستَخرج نقيّةً خالصة ، ولكنها مخلوطة دائما بالعناصر الغريبة التى لا تلبث أن تصهرها النار ، ثم لا يبقى إلا الحرُّ الخالص من جواهرها النافعة (أنزلَ من السماءِ ماءً ، فسَالَتْ أوْدِيَةٌ بِقَدَرِها ، فاحتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابياً . ومِمَّا يُوقِدُون عليه فى النار ابتغاءَ حِلْيَةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه • كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطل • فأمَّا الزَّبَدُ فيذْهَبُ جُفاءً • وأمَّا ما ينفع الناسَ فيمْكُثُ فى الأرض • كذلك يَضربُ اللهُ الأمثال) •

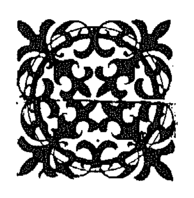
ذلك هو مَثَلُ القديم والجديد • والمعركة بينهما هى المعركة التى تقوم بين جراثيم الأمراض الدخيلة الغازية وبين كرات الدم البيضاءِ المدافعة • فالمعركة بينهما هى نفسُها مظهر طبيعى لسلامة الجسم • ومن الحق أن كثيرا من الأفراد يسقطون صرعى فى المعركة إذا تغلبت الجراثيم الدخيلة الغازية ، كما تسقط بعضُ الأمم ويفنى كيانها وتزول خصائصُها ومقوِّماتها تحت تأثير الدخيل من الآراء والعادات إنْ أُتيح له الظهور • ولكنّ فى ذلك خيراً شاملا عامًّا لا يدركه إلا من يحيط بالمعركة كلِّها من أولها إلى آخرها ، زماناً ومكانا • وسبحان من أحاط بكل شىء علما . كذلك تقوم المعارك بين الغريب الطارىء من العادات وبين الموروث التالد من التقاليد •

وأكثرُ ما يشتدُّ الصراع بين القديم والجديد فى عصور الانتقال ، وعند التقاء الحضارات المتعارضة فى الغزو • لأن الضعيف والمغزُوَّ يكون فى وضع نفسىٍّ يصعُبُ عليه فيه الاختيار ، لافتتانه بالقوى وشعوره العميق بأنه هو الأفضل والأصلح ، ولأن حضارة القوى تكون أمراً واقعا يفرضه الغالب فى أكثر الأحيان ، وليس اقتراحا يُتْرَكُ له الخِيارُ فى الأخذ به أو تركه •

من أجل ذلك ينقل الضعيف المغلوب حين ينقل عن القوىِّ الغالب أسوأ ما عنده من مظاهر الترف والافتنان فى الـمُتَعِ وتقليدِ المظهر الخارجى فى الـمَلْبَس والـمَأكل والعادات • ولكنه لا يصل إلى تقليد اللّب والصميم فى الـخُلُق والسلوك ، لأنه لا يُطيق تكاليفه ولا يقْوَى على احتمال الـمَشاقِّ التى تكتنف الوصول إليه •

وقد يكون المنتصرُ الأقوى فى صراع الأمم وفى الحروب هو الأضعفَ حضارةً وفكرا • وعند ذلك ينقل الغالب عن المغلوب ، ولكنه فى هذه الحالة ينقل نقل الناقد البصير فيعرفُ ماذا يأخذ وماذا يَدَع ، ويهَضم ما ينقله مما يستحسنه ويمتصّه ويُفنيه فى ذاته ولا يُفنى ذاته فيه • وكذلك كان الشأنُ فى الرومان حين غَزَوا اليونان ، وفى العرب حين انتصروا على دولتَى الزمان فى الشرق والغرب : الفرسِ والروم •

هذا الصراع بين القديم الموروث وبين الجديد الطارىء ، الذى نعيشه الآن ، والذى نشأ عنه فِكْرٌ مُبَلْبَل مضطرب لا تتّضح أمامه الرؤية هو السبب المباشر فيما سمّيته (أزمة العصر) • وفى ظِلِّ هذا الصراع نشأت مسائلُ واقضِيةٌ لم يكن لها وجود قبل هذا الصراع ، وجدَّتْ مطالبُ ومطامحُ لم يكن الناس يتطلعون إليها من قبل • وضاق الناس بأشياء كانوا يعيشونها راضين ولا يضيقون بها • وسأحاول فى هذه السلسلة من الأحاديث أن أتناول أبرزَ هذه المجالات الجديدة • وبالله التوفيق •



٢

ميادين الصراع

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ..

حين تلتقى الحضارات لا يدور الصراع بينها حول الحقائق الثابتة التى لا تتغير بين بلد وبلد ، ولا تتميز فى قوم عنها فى آخرين ، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، كالدراسات النظرية من رياضية وطبيعية وكيميائية وحيوانية ونباتية ، وممارساتها على اختلاف أنواعها فى عالم الصناعة والطب والزراعة • فالمصنع لا يوصف بالكفر أو الإيمان ، ولا يصنّف فى مذهب من المذاهب الفكرية أو الاقتصادية ، لأنه يُنقَل من بلده ـ أيًا كان هذا البلد ـ إلى بلدٍ آخر ، أيًا كانت صفته أو دينه ، فيعمل بأيدى أصحابه الجدُدُ كما كان يعمل بأيدى أصحابه القدماء • والحقيقة النظرية رياضيةً كانت أو طبيعية أو كيميائية هى هى برموزها وأرقامها ومعادلاتها فى كل مكان ، يشترك فى حقائقها كل الناس بقدرٍ واحد لا مجال للخلاف أو التفاوت فيه ، لأن من الممكن إعادة التجربة ومراجعتَها والاستيثاقَ من صحتها والانتفاعَ بنتائجها على اختلاف الأزمنة والأمكنة • وإنما يتعلق الخلاف ويدور الصراع دائما حول ما تقوم به شخصية الفرد والجماعة ، مما يميزها عن غيرها من الجماعات • ومصدرُ الشخصية فى كل الأحوال ، وصورتُها وظِلُّها فى الوقت نفسه ، هو الدين والأخلاق ، والتقاليد والعادات ، والفنون والآداب • لأن الأمر فى كل هذه المجالات جميعا لا يتصل بالملموس المحسوس أو المعقول المشترك ، كما هو الشأن فى الدراسات التجريبية أو الرياضية • ولكنه يتصل بقيم الخير والشر ، والجمال والقبح ، والحق والباطل ، والحرام والحلال • وهى تعتمد فى كثير من الأحيان على ما وراء المادة من الغيب الذى لا تتفق عليه العقول ولا تشمله التجربة ولا يتطاول إليه الفكر • ولأن الأمر يجرى فى

هذه المجالات على سُنّة من سنن الله الكبرى فى خلقه ، حين جعلهم شعوبا وقبائل • ولو شاء لجعلهم أمة واحدة •

لذلك تناول الصراع بين القديم الموروث والجديد الطارىء هذه المجالات التى بها تقوم شخصية الفرد وشخصية الجماعة ، فى السياسة ، وفى المجتمع ، وفى الفنون والآداب •

فى السياسة تناول الصراع موضوعات مختلفة ، وازن الناس فيها بين نظام الحكم الإسلامى الذى يجمع بين الدين والدولة ، وبين نظم الحكم الغربية الحديثة التى تفرّق بينهما • ووازن الناس ـ تبعاً لذلك ـ بين التصور الإسلامى للأمَّة ، الذى تحُدّه حدود العقيدة ، دون نَظَرٍ إلى الحدود الأرضية أو العروق الجنسية ، فالمسلمون حيثما كانوا أمّة واحدة ، وبين التصور الغربى الحديث ، الذى يقوم على الحدود الأرضية والعروق الجنسية • ووازن الناس كذلك بين نظام الحكم الإسلامى الموروث وبين النظم المختلفة التى تتوزع نظم الحكم الغربية ، من ديموقراطية واشتراكية ولبرالية • وسوف أتناول هذه المواضيع واحدا بعد الآخر • وأول ما أتناوله منها : الدين والدولة •

من المعروف أن ما يسمونه « عصر النهضة » فى أوربا جاء نتيجة جهاد طويل بين رواد الفكر اللبرالى المتحرر وبين الكنيسة ، التى كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك واسعا شاملا لا يُحَدّ • فسيف الحرمان مسلَّط على رقاب كل من تحدثهم نفوسهم بتجاهل البابا ، فضلا عن مخالفته • وقد كان للناس عظةٌ رادعة فيما جرى للإمبراطور هنرى الرابع من إذلال البابا جريجورى السابع له ، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على اقطاعياتهم • فأعلن عصيانه ، وأحلَّ أتباعه الأمراء من ولائهم له • فاضطر الأمبراطور أن يذهب إليه تائبا فى (كانوسا) سنة ١٠٧٧ م ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام ، مدّثرا بالخيش وهو حافى القدمين وسط الثلج فى فناء القلعة • ولن ينسى التاريخ من أُحرِق ومن نُكّل به تحت آلات التعذيب فى

محاكم التفتيش من روّاد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السحر الأسود •

هذا الصراع الطويل المرير ، الذى وقفت فيه الكنيسة سدًّا بين أوربا وبين التقدم ، وظهر فيه العلماء والباحثون بمظهر الشهداء فى الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت ، قد أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكرى اللبرالى ، فهدموا الكنيسة وهدموا معها الدين • وانتهى ذلك الصراع الطويل المرير بانتصار دعاة اللبرالية والحد من سلطة الكنيسة ، وحصرها فى نطاق الدين • وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية فى أوربا ، وانكمش نفوذ البابا ، فلم يعُد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز • وأصبحت شئون الدولة وتدبير نظام المجتمع فى يد رجال السياسة •

قرأ أصحاب الثقافة الغربية ذلك كله فيما تداولوه من كتب التاريخ ، التى فرضها الاستعمار فى مختلف بلاد المسلمين على مراحل التعليم المختلفة تحت اسم (تاريخ العصور الوسطى) • وقرءوا معه فى هذه الكتب أن ذلك قد استتبع تحرير الفكر ، فنشطَ من عِقاله ، واندفع يرتاد ويكشف فى حرية لا يهددها الخوف ، حتى وضع أوربا فى مكان الذِّروة من القوة والمال ونفوذ السلطان والعِرْفان • وقرءوا فيما درسوا من كتب التاريخ المقررة التى كانت مفروضة على التلاميذ تحت اسم (عصر النهضة) أن تقييد سلطة الكنيسة وفصل الدين عن الدولة كان من أبرز أسباب النهضة ، أو ما كان يسمَّى فى بعض الأحيان بالإحياء • قرءوا ذلك كله • وخُيِّل إليهم أن الشعوب الإسلامية تعيش فى حالة تشبه حالة أوربا فى العصور الوسطى • وساعد على تمكن هذا الوهم أن الذين يتكلمون باسم الإسلام كانوا فى تخلفهم وجهلهم جزءاً من العالم الإسلامى ، الذى مُنِىَ فى كل قطاعاته ، فى جماعاته وأفراده ، على اختلاف ثقافاتهم ، بأسباب التخلف والجهل • وقد دفعهم تخلفهم الثقافى فى كثير من الأحيان

إلى التورط فى محاربة بعض العلوم النافعة بدافع من جهلهم لها ، فزعموا أنها تخالف روح الدين • وبذلك أصبحت آراؤهم موضع السخرية والتندّر •

ثم إن نظام الوظائف الحكومية الجديد فى كثير من البلاد الإسلامية ، وفى عهود الاستعمار بخاصة ، قد أدّى إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح وتخلفِهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم فى المساجد • وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه العلمى والثقافى والاجتماعى فى أيدى أصحاب الثقافة الأوربية ، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نَمط ما تعلموه • فكان من جملة ما نقلوه نقلاً أعمى ، السخريةُ برجال الدين ، والاستخفافُ بأمر الدين تبعا للاستخفاف برجاله •

وكانت هناك قوة خفّية غيرُ ظاهرة تؤيد هذا الاتجاه وتُمِدّ ناره بالوقود والحطب ، بما تلفّقه من أكاذيب ، وما تزوّره من مبالغات ، وما تدبّجه من مقالات ، تلبس ثوب الدفاع عن الحرية ، والرثاء لضحايا الظلم والاستبداد • وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة فى تقويض نظام الخلافة الإسلامية تمهيدا لاغتيال فلسطين واتخاذِها وطنا قوميا ليهود العالم فى مقدمة هذه القوى الخفية • فقد كان من أهداف الصهيونية العالمية ـ ولا يزال ـ أن تفسد التفكير الإسلامى والمسيحى على السواء ، نشراً للفوضى التى يظنون أنها هى السبيل إلى سيادتهم على العالم ، حسب ما يتوهمونه ويسعون إليه • وكان الاستعمار الطامع فى اقتسام العالم الإسلامى والاستيلاء على بتروله وأسواقه ، شريكا للصهيونية العالمية فى هذا التدبير •

والى لقاء قادم إن شاء الله ، أقدم فيه نماذج من الأدب الذى تناول هذا الموضوع • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

٣

السلطة الدينية والسلطة السياسية

الحمد لله ٠ والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ٠ وبعد ..

من أسبق ما ظهر فى الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسية كتاب (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبي ، الذى طبع فى مصر سنة ١٨٩٩ م ٠ والكتاب يعالج أسباب ضعف الشعوب الإسلامية وتخلفها ٠ وقد اتخذ هذا العلاج صورة مؤتمر إسلامى عام تخيَّل المؤلف أنه يجتمع فى مكة كل عام ، ويضم ممثلين عن البلاد الإسلامية فى كل أصقاع الأرض من علمائهم وزعمائهم ٠ يصف كلٌّ واحد منهم ما عند قومه من أسباب الضعف والتخلف مبينا ما يقترحه من علاج ٠ والجديد الخطير فى الكتاب هو دعوة المؤلف فى آخره لأول مرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، إلى فصل الخلافة عن السلطنة ، مقترحا جعل الخلافة فى العرب والسلطنة فى الترك ٠ ويبرِّر الكواكبي ذلك بأن الترك يقدِّمون السياسة على الدين ، ويزعم أن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب ولاء رعاياهم من المسلمين ٠ بينما العرب ، فى الجانب المقابل ، يملكون من المزايا ما يجعلهم أولى بالخلافة ٠ فهم مشرق النور الإسلامى ٠ وبلادهم متوسطة فى موقعها الجغرافى بين المسلمين ٠ وهم أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسا ودينا ومذهبا ٠ وهم أفضل أرضٍ لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين ٠

ودعا المؤلف آخر الأمر إلى نقل الخلافة الإسلامية للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية ٠ ورَسَمَ اختصاصات هذا الخليفة ، فحصرها فى شئون السياسة العامة الدينية ٠ فليس من حقه أن يتدخل فى شىء من الشئون السياسية والإدارية فى السلطنات والإمارات ٠ ولكنه يُصدِّق على توليات

السلاطين والأمراء احتراما للشرع • ويُذكرَ اسمه فى الخطبة قبل أسماء السلاطين ، ولا يُذكر فى المسكوكات • وهو يتولى بعد ذلك رياسة هيئة شورى إسلامية • تنعقد مدة شهر فى كل سنة ، قبيل موسم الحج ، فى مكة • ويبيِّن المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول : إنه يخُتار بطريق الانتخاب ، ويتجدد انتخابه كل ثلاث سنوات • ويُستحسَن أن يكون هذا الخليفة قرشيا •

ولكنّ هذه الآراء لم تخلُ من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوربية المستعمرة ، مثلُ ما جاء فى تحديد وظائف الشورى العامة ، التى لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل ، فقال فيما قال : « وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة ، والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غيرَ مسلمة ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب » • وقال فى موضع آخر : « والغالب أن الدول المسيحية التى لها رعاياها من المسلمين أو المجاورةَ للمسلمين تتحذر من أن يجُرَّ جمع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حربا دينية • فتعمد هذه الدول إلى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساسا • فما هو التدبير الذى يقتضى اتخاذه أمام تحذر الدول ؟ » وردّ الكواكبى على ذلك بكلام طويل ، فى أن المسلمين المتنوِّرين أدنى إلى المسالمة ، وأن العرب منهم أقرب من غيرهم للألفة وللثبات على العهد ، وأن الجهاد فى سبيل الله ليس محصورا فى مجرد محاربة غير المسلمين • فكلُّ عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهادا • وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة فى نفوس الدول الأوربية « ولَدَى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة ، وذلك بأن العرب أينما حلّوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم • كما أنهم لم ينفروا من الأمم التى حلّت بلادهم وحكمَتهم ، فلم يهاجروا منها ، كعدن وتونس ومصر ، بخلاف الأتراك • بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حُكْم الله • لأنهم يذعنون

بكلمة ربهم تعالى شأنه (وتلك الأيامُ نُداوِلُها بين الناس) • فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعَها لا يتحذَّرون من الخلافة العربية • بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصراينة وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذى عرضتُه عليك » •

وكلامُ الكواكبى هنا متأثر بما كان يذيعه ساسة الدول الاستعمارية عن الجامعة الاسلامية ، من تخيل الخطر الذى يهدد الغربيين فى اجتماع كلمة المسلمين وارتباطهم برابطة الإسلام ، الذى يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين ، والذى يعتبر هذا الجهاد ركنا من أهم أركان الدين •

على أن الناظر فى كلام الكواكبى يجده متأثرا بنظام البابوية الذى اتخذ مقره فى روما مهدِ المسيحية الأول فى أوربا ، والذى يتولى رياسة المجمع الدينى ويتوِّج الملوك ، رعايةً لسلطان الدين • كما أن الناظر فى كلامه يريبه ما فيه من تودد الى الدول المستعمرة ، ومن تهوينٍ لوقوع الأمم الاسلامية تحت حكمهم ، وإسقاطِ فريضة الجهاد بعد أن فسرها تفسيرا جديدا غريبا • كما تريبه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين كلام مستر بلنت فى كتابه (مستقبل الاسلام) الذى دعا فيه إلى نقل الخلافة للعرب ، وبينه وبين ما تكشفت عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنجليز سنة ١٩١٦ م •

وشبيهٌ برأى الكواكبي ما دعا إليه بعد ذلك كاتب معروف هو عبدالقادر حمزة حين نشر سنة ١٩٠٤ م مقالا فى مجلة المقتطف تحت عنوان (خطر علينا وعلى الدين) • وفيه يقول إننا نردّ أسباب التأخر فى كل شىء إلى الدين • وهذا وَهْمٌ يصوِّر فى زعمه استسلامنا استسلاما أعمى إلى ماضينا الدينى الذى يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد • مناديا بترك الدين فى زيِّه الحقيقى ، لأننا ننفِّر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه •

وأبرزُ ما فى المقال أنه يكشف عن المصدر الذى صدر عنه الكاتب فى تفكيره ، وهو تاريخ أوربا الحديث • وذلك حين يقول : « هذه بلاد أوربا • كان أهلها قبل العصر الذى يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعرى الدين المسيحي ، متشيعين لكل ما يأتى من جانبه • فمازالوا يغالون ويتطرفون ، حتى انتهت بهم الحال إلى حصر الدين بُرمَّته فى الكنيسة • ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم ، توجههم إلى الحروب الصليبية ، فيعانون المشاقّ ويكابدون الأهوال ويهلكون ألوفا ومئاتِ ألوف حبًّا فى الدين • ثم تستأثر بالأموال فلا تجد منهم إلا مُلبّين خاضعين ، يقدّمون إليها أموالهم باسم الغيرة على الدين • ثم تستولى على الكتاب المقدّس وتحرِّم على غيرها فهمَه وتفسيره ، فيتلقون أوامرها بالرضى والطَّوع عملاً بأوامر الدين • ثم تقف أمام العلوم مخافَةَ أن يكون فيها ما يخالف الدين • ومازالت على حالها ، تفتئت كل يوم على الدين باسم الدين ، والناسُ لا يعرفون إلا كلمات تسمَّى الدين يتفانَون فى الجهاد غيرةً عليها ، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ إلى الأذهان وابتدأ دور النهضة • فقام القسوس وقعدوا ، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها ينادونها : الدينَ الدين ! اطلبى النهضة والكمال والرقى من جانب الدين • وظلوا يَصدَعون آذانها بهذا النداء حتى تنبهت العقول ونظرت إلى الدين كما صوَّروه لها ، فنبذه البعض ، وضعفت سلطته على البعض الآخر » •

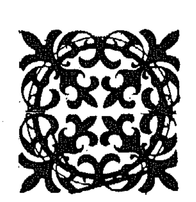
وقد ردَّ على هذه المزاعم بالأسلوب نفسه وتحت العنوان نفسه فى المجلة نفسها رفيق العظم ، فقال إن نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من الشوائب ، وأن الذين يتخذون القدوة من تاريخ أوربا الحديث ينسون أن الإصلاح المدنى فيما يسمى بعصر النهضة كان تاليا للإصلاح الدينى وتابعا له • فقد بدأت هذه النهضة فى القرن السادس عشر الميلادى بالإصلاح الدينى الذى دعا فيه لوثر إلى ترك البدع الدينية وتطهير العقائد من شوائبها •

والمقالان ، كما هو واضح ـ على خلاف ما بينهما فى الرأى ـ يحتكمان إلى تاريخ

النهضة فى أوربا ، ويصدران عنه فيما يذهبان إليه • وإنْ كان رفيق العظم يجهل أو يتجاهل ما هو معروف من أن حركة لوثر كان من ورائها دوافع صهيونية تستهدف هدم الكنيسة المسيحية التى كانت تناصبهم العداء •

وقد ثارت المسألة من جديد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين فصل الكماليون الدين عن الدولة وأقاموا عبدالمجيد خليفة مجردا عن السلطة ، يقيم فى الآستانة ، بينما يقيم رئيس الجمهورية فى العاصمة الجديدة (أنقرة) • ثم ما لبثوا أن ألغوا الخلافة جملةً • وذلك ما أرجىء الحديث فيه إلى لقاء تال إن شاء الله •

والسلام عليكم ورحمة الله •





الخلافــة الإسـلامية :

الخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

حين هُزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى ـ وهى يومذاك دولة الخلافة الإسلامية ـ حزن المسلمون لذلك حزنا شديدا • وتردد صدى هذا الحزن بنوع خاص فى البلاد العربية وفى الهند • لذلك كان سرور العرب والمسلمين كبيرا بانتصار مصطفى كمال على اليونان فى حربه معها لإجلائها عن الأراضى التى احتلتهـا فى الأناضـول ، بوصفها إحـدى دول الحلفـاء المنتصرين • وبقـدر ما كان فرحهـم كبـيرا بهـذه الانتصارات كان حزنهم كبيرا حين خابت آمالهم بعزل الخليفة عن السلطة ثم إلغاء الخلافة • وفى ظل هذه الأحداث صدر كثير من الكتب والمقالات الصحفية والقصائد الشعرية التى تناقش نظام الحكم الجديد فى تفريقه بين الدين والدولة ، تقليدا لنظم الحكم الغربية •

وكان من أوفى ما ظهر فى هذا الموضوع كتاب رشيد رضا (الخلافة أو الإمامة العظمى) • نشره فى سلسلة من المقالات بمجلة (المنار) الشهرية ، التـى كان يصدرها فى مصر ، على ست حلقات • وقد بحـث فيه مسألـة الخلافـة من كل وجوهها • ويعنينا فى مقامنا هذا أن نقف فى كتابه عند مسألتين يشتبه الأمرُ فيهما على كثير من الناس • أولاهما ما يظنه الناس من تعارض الحكم الدينى مع حق الشعب فى التشريع • وثانيهما ما يظنه بعضهم من أن الخلافة كالبابوية ، تنطوى على الاستبداد الدينى •

أما المسألة الأولى فقد بسط الكلام فيها فى الفقرة ٣٢ عند كلامه عن (الاشتراع الإسلامي والخلافة) • وقد فرّق المؤلف بين الدين الذى هو أصول العقائد ، والحكمُ

والآدابُ التى هى قواعد الدين المتعلقة بصلاح المعاش والـمَعاد ، وبين الشرع الذى هو خاص بالأحكام القضائية أو العملية دون أصول العقائد . وقال إن ذلك هو الذى دعا الفقهاء إلى تقسيم الفقه قسمين : عبادات ومعاملات . وخلص إلى أن الدين « هو ما شرِع ليُتَقرب به إلى الله تعالى من العبادات ، وتركِ الفواحش والمنكرات ، ومراعاةِ الحق والعدل فى المعاملات ، تزكيةً للنفس ، وإعداداً لها للحياة الآخرة .... وأما ما عدا ذلك من نظام الإدارة والقضاء والسياسة والجباية وتدبير الحرب ، مما لا دخل للتعبد والزلفى إلى الله فى فروعه ، بعد حسن النية فيه ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى زمنه مشترعا فيه باجتهاده ، مأمورا من الله بمشاورة الأمة فيه ، ولا سيما أولى الأمر من أفرادها ، الذين هم محل ثقتها فى مصالحها العامة ، وممثلو إرادتها من العلماء والزعماء والقواد . وهو كذلك مفوَّض مِنْ بعده إلى هؤلاء أنفسهم . ويخَلُفه لتمثيل الوحدة من يختارونه إماماً لهم وخليفة له » .

« ومن آثار الخلفاء الراشدين المهديين ما كانوا يستشيرون فيه أهل العلم والرأى من أمور الإدارة والقضاء والحرب أيضا ، وما وضعوه من الدواوين والخراج وغير ذلك مما لم يَرِدْ به نص فى الكتاب والسنَّة ..... فكلٌّ هذا مما يسمَّى فى عرف علم الحقوق والقانون تشريعا » .

« فثبت بهذا أن للإسلام اشتراعا مأذونا به من الله تعالى . وأنه مفـوَّض إلى الأمة ، يُقرّه أهلُ العلم والرأى والزعامة فيها بالشورى بينهم ، وأن السلطة فى الحقيقة للأمة . فإذا أمكن استفتاؤها فى أمرٍ وأجمعت عليه فلا مندوحة منه . وليس للخليفة ــ ودَعْ مَنْ دونه من الحكام ــ أن ينقض إجماعها ولا أن يخالفه ، ولا أن يخالف نوابها وممثليها من أهل الحل والعقد أيضا .... وأما إذا اختلفوا فالواجب ردّ ما تنازعوا فيه إلى الأصلين الأساسيين ، وهما الكتاب والسنّة ، والعملُ بما يؤيده الدليل منهما أو من أحدهما » .

ويبينّ المؤلف أن هنا وجهَ الخلاف بين الاسلام وبين التشريع الأوربى الحديث

الذى يأخذ برأى الأكثر عند اختلاف الرأى ، ويبين فضل النظام الإسلامى وحكمته ، إذ أن « النزاع بين طرفى الأمة يزول بتحكيم الكتاب والسنَّة فيه ، وتطييب نفوس جميع نواب الأمة بما يظهر رُجحانه بالدليل ، ولا يبقى للأضغان والنزاع مجال بينهم » ٠

أما الشبهة الثانية التى جَلاَّها المؤلف فيما جلا من شبهات ، فقد بسط القول فيها فى الفقرة ٣٩ عند كلامه عن (الخلافة والبابوية أو الرياسة الروحية) ٠ وقد بين المؤلف أن الإسلام قد أعتق الناس من رق العبودية لغير الله سبحانه وتعالى ٠ وأن من أصول الشريعة أن نعامل الناس بحسب أعمالهم الظاهرة ونَكِلَ أمر القلوب والسرائر إلى الله ٠ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل المنافقين معاملة المؤمنين ، مع علمه ببعضهم ٠ ويَصِلُ المؤلف من ذلك إلى « أن الخليفة فى الإسلام ليس إلا رئيس الحكومة المقيدة ، لا سيطرة ولا رقابة له على أرواح الناس وقلوبهم ٠ وإنما هو منفذ للشرع ٠ وطاعته محصورة فى ذلك ٠ فهى طاعة للشرع لا له نفسِه ٠٠٠ ولكن الأعاجم أفسدوا فى أمر الخلافة والإمامة بما دست الباطنية فى الشيعة من تعاليم الإمام المعصوم ، وبما أفرط الفرس والترك ومن تبعهم فى الغلو بإطراء الخلفاء .... ، حتى فتحوا لهم باب الاستعباد ، وقهروا الأمة على الخنوع والانقياد » ٠

وينقل المؤلف عن كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) لمحمد عبده ما يؤيد وجهة نظره ، وما يتضح معه أن « لكل مسلم أن يفهم عن كتاب الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا من خلف ٠ وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصّل من وسائله ما يؤهله للفهم .. فإنْ لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يُعِدّه لفهم الصواب من السُّنة و الكتاب ، فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما ... فالخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبطَ الوحى ، ولا من

حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم ، شرط فيه أن يكون مجتهدا ، أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهُل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين للأمة » .

على هذا النحو مضى رشيد رضا فى النقل عن كتاب محمد عبده ، بما يصوّر الفرق بين الخليفة عند المسلمين ، الذى هو حاكم مدنى من جميع الوجوه ، وبين البابا عند المسيحيين ، الذى ينفرد بتلقى الشريعة ويستأثر بالتشريع . وبذلك أوضح رشيد رضا الفرق بين الخلافة الإسلامية وبين الثيوقراطية . كما أوضح أن خلط الباحثين والكتاب من الغربيين بينهما إنما هو ناتج من الخطأ فى تصور نظم الحكم الإسلامى .

وإلى لقاء تال إن شاء الله ، فى كتاب آخر ظهر فى هذه الفترة ، وهو كتاب (النكير على منكرى النعمة ، من الدين والخلافة والأمة) لمصطفى صبرى .

والسلام عليكم ورحمة الله .



٥

الخلافة الإسلامية :
النكير على منكرى النعمة لمصطفى صبرى

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ••

الكتاب الذى أريد أن أنقل عنه بعض ماجاء فيه عن الدين والدولة بين النظام الإسلامى والنظم الغربية هو كتاب (النكير على منكرى النعمة ، من الدين والخلافة والأمّة) • ومؤلفه هو مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى تركيا فى خلافة وحيد الدين • وقد فرّ معه حين دخل الكماليون الأستانة • فرّ أولا إلى اليونان حيث أصدر صحيفة معارضة للكماليين ، تنبه المسلمين إلى خطرهم على الدين • ثم تنقل بين مصر والشام والحجاز ، واستقر أخيرا فى مصر • وبها توفى سنة ١٣٧٤ (١٩٥٤ م) • وقد ظهر كتابه الذى نعرض بعض مقتطفات منه بعد كتاب رشيد رضا بثلاثة شهور • فقد ذكر فى آخره تاريخ الفراغ منه ، وهو : ١٥ شعبان ١٣٤٢ (الموافق ٢٠ مارس ١٩٢٤ م) وكان تأليفه أثناء اقامته فى الشام • وقد كتب مصطفى صبرى بعد ذلك عددا من الكتب صدرت له بعد استقراره فى مصر • كان أولها كتابه (مسألة ترجمة القرآن) صدر فى مائة وثلاثين صفحة سنة ١٣٥١ (١٩٣١ م) • وقد ناقش فيه حجج كل من الشيخ محمد مصطفى المراغى ومحمد فريد وجدى فى جواز ترجمة القرآن والتعبد بها فى الصلاة • ثم ألف كتاب (موقف البشر تحت سلطان القدر) سنة ١٣٥٢ (١٩٣٢ م) وهو يرد فيه على مازعمه بعض الزاعمين من أن تأخر المسلمين وتواكلهم يرجع إلى إيمانهم بعقيدة القضاء والقدر • وهو يقع فى ٢٨٠ صفحة • ثم أصدر بعد ذلك كتاب (قولى فى المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب) سنة ١٣٥٤ (١٩٣٤ م) وهو يقع فى ٨٥ صفحة من القطع الصغيرة • ثم طبع كتاب (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون) سنة ١٣٦١ (١٩٤٢ م) وهو يقع فى ٢١٥

صفحة . وقد رد فيه على الماديين الذين يشككون فى وجود الله سبحانه وتعالى ، وعلى الذين ينكرون الغيب والنبوة والمعجزات ، وعلى من سرت فيهم عدوى العصر من علماء المسلمين الذين يذهبون إلى تأويل المعجزات بما يساير روح العصر . وكان آخر ماظهر لمصطفى صبرى كتابه الكبير (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) الذى طبعه سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) . وهو يقع فى أربعة مجلدات كبيرة ، يبلغ كل واحد منها نحو خمسمائة صفحة ، وفى هذا الكتاب خلاصة آراء المؤلف الفقهية والفلسفية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان مصطفى صبرى مدفوعا فى كل ماكتبه بما استيقنته نفسُه من أن الغرب يجدُّ فى محو الإسلام ، وأن نجاح مكيدته فى تركيا نذير بانتشارها . فهو يجاهد بكل مايسعه من جهد لمنع المسلمين من الانحدار إلى نفس المصير الذى صار إليه الترك على يد الكماليين . وقد رأى مصطفى صبرى فى وضوح وتثبت أن أهم ما يتعرض له الفكر الإسلامى الحديث من أخطار هو خطر الغزو الثقافى ، الذى يهدد الشخصية الإسلامية بالاضمحلال ، نتيجة لما وقر فى نفوس المسلمين من إجلالٍ للثقافة الغربية وإسراف فى الاعتماد عليها والنقل منها . وقد دعاه ذلك إلى أن يتعقب الفكر الإسلامى الحديث بالنقد . واستمد مادته مما تخرج المطابع من كتب ومن صحف . وبذلك صار لكتبه ـ إلى جانب قيمتها الفكرية الإسلامية ـ قيمةٌ تاريخية ، إذ أصبحت سجلا صادقا للحياة الفكرية المعاصرة . وزاد فى قيمتها من هذه الناحية أن المؤلف قد جرى فى كل كتبه على نقل النصوص التى يعارضها كاملةً قبل أن يتولى الرد عليها .

ونعود ، بعد التعريف بمصطفى صبرى ، إلى كتابه (النكير على منكرى النعمة) الذى نريد أن ننقل عنه بعض ماجاء فيه عن الدين والدولة بين النظام الإسلامى والنظم الغربية .

تكلم المؤلف عن فساد دين الكماليين . وقدم نماذج مما كتب بعض كتابهم ، مستشهدا بها على استخفافهم بالقرآن وبالتعاليم الإسلامية ومجاهرتهم بأنها مما لايمكن تطبيقه فى القرن العشرين . وضرب أمثلة لما عبثوا فيه بالشرع ، حين سنّوا من القوانين ما يخالفه . مثل إباحتهم اختلاط الرجال بالنساء ، وتحديدهم حدا أدنى لسن الزواج فى البنين والبنات ، وتحريم ما أحل الله من تعدد الزوجات ، بعد أن حرفوا كلام الله عن وجهه . وبينّ المؤلف فى كلامه عن عصبية الكماليين لجنسهم أنهم قد ذهبوا فى التعصب لطورانيتهم إلى حد العداوة للإسلام ومهاجمته باعتباره دينا عربيا ، وإحيائهم لعقائد الترك الوثنية السابقة على إسلامهم ، كالوثن التركى القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض ، الذى صوروه على طوابع البريد ، ووضعوا له الأناشيد ، وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب ، وكأنهم يحُلّون تحية الذئب محل الصلاة ، مبالغة منهم فى إقامة الشعور الجنسى مقام الشعور الإسلامى » .

وربط المؤلف بين فساد دين الكماليين وبين فصلهم الدين عن الدولة ، فردَّ تجريد الخلافة من السلطة إلى ارتداد الحكومة التركية وانتزاعها من لباسها الدينى . ذلك لأن الحكومة هى القوة العاملة ، والخلافة هى اتصاف تلك الحكومة بصفة دينية . فإخراج الحكومة عن الخلافة إخراج لها عن الدين « فالكماليون قد نقلوا ماأحبوه من السلطة إلى من أحبوه . وتركوا ماكرهوه من الخلافة فيمن كرهوه » وتركوا الخليفة فى الأستانة ، مع نقلهم العاصمة إلى أنقرة ، بزعم أنها أحصن موقعا ، وكأنه لايلزم فى مقر الخلافة من العصمة مثلُ مايلزم فى مقر الحكومة .

وكان من أحسن ماوفق المؤلف فى تجليته وبيان وجه الحق فيه شبهتان يثيرهما المتفرنجون . تتعلق إحداهما بالأحكام الشرعية ، والأخرى بعلماء الدين . فهم يقولون فى الأولى : كيف يمكن أن تكون الحكومة حرة ومستقلة إذا قيدت نفسها

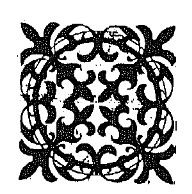
بالدين ؟ وقد كان رد المؤلف على ذلك : إننا إذا اعتقدنا أن دين الإسلام نعمة للمسلمين وسعادة لهم فى الدنيا والآخرة ، فلا ينافى حريتهم واستقلالهم كونُ حكومتهم ممنوعةً من التخطى إلى ماوراء حدود الدين • ثم بين أن المقصود بالحرية هو حرية الأمم تجُاه الحكومات ، لا حريةُ الحكومات فى القيام بأمور الأمة • ولهذا تقيد الشعوب الحرة حكوماتها بالقوانين ، وتلزمها بالتمسك بها ، وتمنعها من التزحزح عنها أو التلاعب بها • وكما يتسنى للحكومة المستبدة التلاعب بالقوانين عن طريق تأويلها بما يناسب شهواتها ، فكذلك يتسنى لها ذلك بتبديلها وتغييرها • « ولا يوجد عظيم فرقٍ بين تخطى القوانين بإهمالها وبين تخطيها بإبدالها » • وموافقةُ النواب على تبديل القوانين ليست دليلا على رضا الأمة « ولهذا يحُتاج فى بعض البلاد إلى توثيق القوانين الصادرة من البرلمان بعرضها على الأمة • مع أن الأمة نفسها تحتاج إلى رقيب من نفسها ودساتيرَ أوّليّةٍ فكريةٍ أدبيةٍ ارتكزت فيها ، تقيها الخطأ والزلل فى اجتهادها الذى تَبنِى عليه قوانينها •• فيلزم أن يكون لسنِّ القوانين حدود يوقف عندها • وبعبارة أخرى يلزم أن توجد قوانين أساسية لايتخطاها نُظّامُ القوانين ، ولا يسوغ لهم تبديلُها •• وتلك القوانين الأساسية أسلَمُها ماكانت سماوية ، لِماَ أنّ تغييرها ليس فى وسع البشر • فهى أحرَى أن تكون تخُوم الاستناد ، وتُتَّخذَ آخرَ مَفْزَعٍ لإصلاح الفساد الناشىء من أنفسهم ، ومنهم نُظّامُ القوانين » •

أما الشبهة الثانية التى يكثر المتفرنجون من ترديدها ، فهى قولُهم فى الدعوة إلى عدم الاعتداد بعلماء الدين : لا اختصاص لواحدٍ من صنوف المسلمين فى العلم بالدين ، ولا امتياز ، ولا رهبانية فى الإسلام • وقد رد المؤلف على ذلك بقوله : « ولكن هناك طائفة قال الله تعالى فى شأنهم (فَلَوْلا نَفَر من كلٍّ فِرْقةٍ منهم طائفةٌ ليتَفقَّهُوا فى الدِّين وليُنْذِرُوا قومَهم إذا رَجَعوا إليهم لعلَّهم يحْذَرون) • حتى استثنى سبحانه وتعالى تلك الطّائفة من فريضة الجهاد » • ولذلك فالمؤلف يدعو علماء الدين للاشتغال بالسياسة ، إذ يقول فى موضع آخر : « والذين جردوا الدين فى ديارنا عن

السياسة كانوا هم وإخوانُهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين ، بحجة أنه لاينبغى لهم ويَنْقُص من كرامتهم . ومُرادُهم حَكْرُ السياسة وحصرُها لأنفسهم ، ومخادعةُ العلماء بتنزيلهم منزلة العَجَزة . فيقبِّلون أيديهم ويُخيِّلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم ، ثم يفعلون مايشاءون بدين الناس ودنياهم ، محرَّرين عن احتمال أن يجىء من العلماء أمرٌ بمعروف أو نهىٌ عن منكر ، إلا مايُعَدُّ من فضول اللسان ، أو يكمن فى القلب ، وذلك أضعف الايمان . فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطئوا مع كل الساسة ، صالحيهم وظالميهم ، علىَ أن يكون الأمر بأيديهم ، ويكونَ لهم منهم رواتب الإنعام ومراتب الاحترام ، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسى » .

ولم يكَد المؤلف ينتهى من طبع كتابه حتى وردت الأنباء بالغاء مصطفى كمال للخلافة . فألحق المؤلف بالكتاب فصلا قصيرا ختمه به ، وجعل عنوانه (قطعَتْ جَهيزَةُ قولَ كلِّ خَطِيب) .

والسلام عليكم ورحمة الله ،



٦

الجامعة الإسلامية والجامعة القومية

كان مما استتبعه الخلاف فى تصور نظام الحكم بين الإسلام وبين الحضارة الغربية المعاصرة خلاف شغل الشعراء والأدباء والمفكرين حول تصور الأمة والدولة ۰وتمثل ذلك فى صدر هذا القرن الميلادى فى الصراع بين الجامعة الإسلامية والجامعة القومية أو الوطنية ۰والجامعةُ الإسلامية هى الرابطة أو الصلة التى تجمع المسلمين ۰ فالمسلمون على اختلاف أجناسهم وألوانهم أمة واحدة من دون الناس ۰وهذا هو التصور التقليدى الذى تعارف عليه المسلمون منذ ظهور الإسلام وتوارثوه خلفا عن سلف ۰ أما الجامعة القومية أو الوطنية فهي تَصوُّرٌ طارىء نقله المسلمون فيما نقلوا من نظم الغرب ، الذى برزت فيه هذه الظاهرة فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكانت حرب أمريكا فى سبيل استقلالها والثورة الفرنسية من بعدها فى مختتم القرن الثامن عشر هى نقطةَ البداية لهذه الحركة ، التى اتخذت شكلا حربيا عنيفا من بعد ، ترتب عليه تفتيت دولتين كبيرتين ، هما الإمبراطورية النمساوية والدولة العثمانية من ناحية ، بانبعاث القوميات الجديدة عند الإغريق والتشيك والسلوفاك والرومانيين وبولندا ۰ كما ترتب عليه من ناحية أخرى ائتلاف إمارات متفرقة لتكوين دولة واحدة كبرى ، كما حدث فى إيطاليا وألمانيا ۰ فى ظل هذا التصور القومى الجديد نشأت فى أوربا مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد تجمعهم رابطة الدم والعصبية الجنسية ۰ وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لرابطة الوطن والقومية ، واندفعت فى حماس عاطفي بالغ لتحقيقه ، واستنقاذه من الدائرة الكبيرة التى ينطوى تحتها ، أو جمع شمله فى وحدة كبرى تضم ما تفرق من أشتاته ۰ وكان الكتّاب والشعراء والصحف والدعاة والباحثون فى

الأجناس يغذّون فكرة القومية الجديدة ، التي تستند إلى ما غرسته الثورة الفرنسية فى الناس من تعاليم الديمقراطية ، وما نشرته من الدعوة إلى الحرية ، التى أيقظت الشعور القومى وروح التمرد فى الشعوب ، حتى أصبح التغنى بمجد الوطن والتضحية فى سبيله هو الأغنية (الرومنسية) المحببة ، التى ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الكنسية ٠ وارتفعت قيمة التضحية بالجهد وبالمال وبالروح فى مجد هذا الوطن الذى اتجهت إليه عواطف الجماهير ، كأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبىٌ جديد ٠

وكان السلطان عبدالحميد فى فترة حكمه الطويل الذى بلغ ثلث قرن قد تنبه إلى ما يحيط الدولة العثمانية من مخاطر ، وفتح عينيه على الدول الأوربية التى تتربص بها وتنتظر الفرصة السانحة للانقضاض عليها واقتسام أراضيها ٠ ورأى أمام هذه الأخطار المحدقة بالدولة أن السبيل الوحيد لجمع شملها وتوحيد صفوفها هو إحياء الرابطة الدينية ٠ فاتجه إلى تقوية « الجامعة الإسلامية » ونشرِ شعاره المعروف (يا مسلمى العالم ٠ اتحدوا) ٠

وكان الشعور القومى الذى ظهر فى القسم الأوربى من الدولة العثمانية ، ومن ورائه تحريض روسيا وإنجلترا على وجه الخصوص قد اتخذ من جهة أخرى شكلا دينيا ٠ ولم يلبث أن تحول إلى صدام عسكرى ، يكاد يكون فى طبيعته امتدادا للحروب الصليبية ٠ فكانت روسيا القيصرية لا تنقطع عن إثارة الفتن فى دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين ٠ وكانت الصحف والمجلات فى بلاد المسلمين والنصارى على السواء تفيض بأنباء المجازر الوحشية الرهيبة فى البلقان ، التى لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم ، والتى رد عليها السلطان عبدالحميد بمجازر أبشع منها فى إخماد ثورة الأرمن ٠ وكانت (العرائض) تنهال على الملكة فكتوريا طالبة إنقاذ المسيحيين من

مذابح المسلمين · وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بإنجلترا يلقى الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسبا إلى تركيا اضطهاد المسيحيين ، ومشيرا إلى السلطان عبد الحميد باسم (الشيطان) و (عدو المسيح) · وكان المستر بارنج الذى عُرف فيما بعد باسم اللورد كرومر بعد منحه لقب (لورد) ، سكرتيرُ السفارة الإنجليزية فى الآستانة ، يكتب تقارير مطولة عن المسألة البلقانية ، يقترح فيها أن يكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين ·

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، والتجمع حول شعار (الجامعة الإسلامية) الذى نادت بها تركيا فى عهد عبدالحميد ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدَرها على قيادة المعركةِ ضد العدو المشترك ·

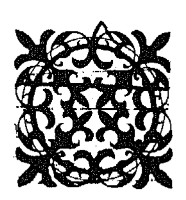
ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة · فقد كان هناك وجه آخر للصورة يتهيأ للظهور على مسرح الأحداث · كانت هناك حركة بين الترك تتعصب للجنس الطورانى الذى ينتمى إليه أجداد الترك الأولون · وكانت هذه الحركة الطورانية تتخذ شكل خلايا سرية ، وتتسلل إلى صفوف الجيش بين عناصر مريبة ينتمى أكثرها إلى طائفة من اليهود يعرفون « بالدونمة » ، كانوا يتظاهرون بالإسلام ويتسمَّون بأسماء المسلمين ولكنهم يعيشون فى مساكنهم وفى معاملاتهم وتزاوجهم فى مجتمع مغلق بإقليم (سالنيك) · وكانت هذه الخلايا السرّية تعرف باسم (تركيا الفتاة) أو الـ (جون تورك) كما كان يحلو لكثير من المنتمين إليها ، المتأثرين فى تفكيرهم بالثورة الفرنسية ، أن يسمّوها ·وهى التى عرفت فيما بعد ، حين ظهرت إلى الوجود فى شكل حزب سياسى ، بعد نجاحهم فى إسقاط السلطان عبدالحميد ، باسم (حزب الاتحاد والترقى) أو (الاتحاديين) على سبيل الاختصار · وكانت هذه الخلايا السرية التى عرفت باسم (تركيا الفتاة) أو ال (جون تورك) تعقد اجتماعاتها السرية فى (المحافل الماسونية) التى كان ينتمى إليها أكثر أعضائها ، والتى كانت تتمتع بحصانة دولية تشبه حصانة السفارات والقنصليات الأجنبية · وصلة الماسونية

بالصهيونية العالمية ظاهرة مشهورة لا تحتاج للتنبيه إليها . وكانت هذه الجماعة ذات ميول إلحادية ظاهرة ، تبدو فيما كان ينشره كتّابُها ومفكروها فى الصحف ، من آراء تستخف بالدين وتدعو إلى التحرر من قيوده ، وإلى قيام النهضة على أساس عِرْقِيّ عصبى يعتمد على سيادة العنصر التركى وتتريك العناصر الأخرى التى تضمها الدولة ، وأبرزُها العناصر العربية .

وفى مقابل هذه الحركة العنصرية التركية نشأت حركات قومية مماثلة بين العرب تمثلت فى حركتين . إحداهما تمثل الجناح الشرقى للعرب فى بلاد الشام والعراق ، وهى حركة تدعو إلى (الجامعة العربية) . والأخرى فى مصر تدعو إلى جامعة مصرية ضيقة لا تتجاوز حدودها . وكانت الحركتان تنتشران بين أصحاب الثقافات الغربية بنوع خاص ، وبين أصحاب المصالح الخاصة الذين يجدون تشجيعا من الإنجليز فى مصر ، ومن بعض السفارات الأجنبية فى الشام . وبذلك أصبح الصراع يدور بين ثلاث روابط أو جامعات : الجامعة الإسلامية ، والجامعة العربية ، والجامعة المصرية .

وإلى لقاء تال إن شاء الله فى مزيد من البيان حول هذه الجامعات .

والسلام عليكم ورحمة الله .





رفض الجامعة القومية

الحمد لله · والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله · وبعد ..

دار صراع فكرى طويل منذ أوائل هذا القرن الميلادى حول الرابطة الجديدة الوافدة التى تسمى بالوطنية ، والتى كانت تسمى فى مصر بالجامعة المصرية ، وكانت تسمى فى بلاد الشام والعراق بالجامعة العربية ، ثم تحولت بعد انفراط عقد الدولة العثمانية إلى وطنيات إقليمية · هل هى بديل من الجامعة الإسلامية ؟ أم أنها داخلة فيها تنطوى تحتها ولا تتعارض معها ؟

انقسم المفكرون والأدباء فى هذا الشأن وتوزعتهم أربعة مذاهب · تجاهل فريق منهم هذه الفكرة الوافدة واعتبروها غريبة عن أرضنا لا مكان لها فيها · فكانوا لا يتحدثون حين يتحدثون عن وجوه المفاسد وما يقترحون لإصلاحها إلا عن الأمة الإسلامية وجماعة المسلمين · واعتبرها قوم آخرون أمرا واقعا فى التنظيم الدولى الحديث لا يصح تجاهلها ولا يجدى إنكاره ، فتكلموا عنها مبينين ماهيتها دون أن يعرضوا لتبيين مكانها من الجامعة الإسلامية أو يحددوا صلتها بها · وتعصب لها فريق ثالث وأفرطوا فى التعصب حتى أنكروا الجامعة الإسلامية واعتبروها وهماً لا يمكن أن تقوم عليه رابطة سياسية · وظهر آخرَ الأمر فريق رابع يدعو إلى الجامعة الوطنية ولا يرى تعارضا بينها وبين الجامعة الإسلامية ·

أما الفريق الأول الذى يتجاهل هذه الجامعة الوطنية الوافدة فكان يضم جماعة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غيرَ رابطة الإسلام ، وكثرةً كبيرة من علماء الدين الذين ينفرون من كل المستحدثات التى وفَدت مع أصحاب الثقافات الغربية · وهذا الفريق هو الذى يتكلم بلسانه رشيد رضا حين عَرَض فى كتابه (تاريخ الأستاذ

الإمام) للخديوى عباس ، وأفاض فى ذكر الخصومة التى كانت بينه وبين محمد عبده ، ثم ختم الحديث بذكر شيء من محاسنه ، حتى لا يبدو شديد الانحياز لمحمد عبده إلى درجة الانحراف عن العدل ، فقال فيه « أولُ ما عرف الناس من محاسنة ما يسمّى فى عُرف هذا العصر بالوطنية » • وتأمل قولـه « ما يُسمَّى فى عُرف هذا العصر » • وشبيه بذلك ما قاله عبدالعزيز جاويش حين سأله بعضُ الناس عن الحركات الوطنية ومبتدأ خبرها وسرِّ سياستها ، فأجابهم فى مقال له نشر فى صحيفة (العَلَم) سنة ١٩١٠ م ، « إن الشعور بالوطنية اصطلاح إفرنكى انتقلت بذوره إلى الشرق من مَطَاوى العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التى اهتدى إليها أهل الغرب » • وهذا الفريق لا يتكلم حين يتكلم إلا عن الجامعة الإسلامية • وأبرز ما ظهر فيه من كتابات هو ما ضمّنته صحيفة (العروة الوثقى) من مقالات فى الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) • وهى المقالات التى اشترك فى تحرير أكثرها جمال الدين المعروف بالأفغانى ومحمد عبده •

ولا نريد أن نعرض هنا للهدف الحقيقى والغرض الخفى من هذه المقالات • فهذا موضوع آخر وحديث طويل يخرج بنا عن هذا السياق • وأيًّا ما كان الأمر فقد كانت هذه المقالات من أبرز ما ظهر فى هذه الفترة المبكرة التى يفصلنا عنها قرن كامل من الزمان ، فى الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) ومهاجمة التقليد الأعمى للحضارة الغربية •

يهاجم أحد هذه المقالات الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوربية ، فيقول :

« شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد • وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكلِّ ما يسمونه تمدنا • فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا

لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ ... نعم • ربما يوجد بينهم أفراد يتفيقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء ، لا تُعرَف غايتها ولا تُعلم بدايتها • وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بِسمَةٍ أخرى على حسب ما يختارون • ووقفوا عند هذا الحد • ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدّلوا هيئات المآكل والملابس والفُرُش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدّوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره •

... وهذا جَدْعٌ لأنف الأمة ، يشوه وجهها ويحط بشأنها • وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وُضِعت فيها على غير أساسها ، وفجأتهم قبل أوانها • »

وجاء فى مقال آخر من مقالات (العروة الوثقى) تحت عنوان (التعصب) :

« تَغْثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى مفاسد التعصب الدينى • وزعموا أن حَمِيَّة أهل الدين لما يؤخذ به إخوانُهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يُلِمُّ بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذى يصدّهم عن السير إلى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجَوْر والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم • ومن رأى أولئك المُثَغْثِغين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطان العقائد • وكثيرا ما يُرجفون بأهل الدين الإسلامي ، ويخوضون فى نسبة مذامّ التعصب إليهم » • ثم يبين أن الدين أعظم مُقوِّم للخلق ، وأن الغلو الذى يطرأ على العصبية الدينية فيدعو إلى إذلال المخالفين فى الدين ، كالغلو الذى يطرأ على العصبية الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين فى الجنس واستعبادهم • ويبين أن الدعوة إلى التعصب فى الجنس الذى يسمونه (الوطنية) إنما يروجه الإفرنج الذين

يريدون أن ينقضوا بناء الملة الإسلامية ، ويفرّقوا بين شعوبها ، ليسهل عليهم استعمارها ، وأن المغفلين من المسلمين الذين تبعوا هذه الدعوة الخبيثة قد هدموا العصبية الدينية ، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التى يسمونها (الوطنية) •

أما الفريق الثانى الذى اعتبر (الوطنية) أمرا واقعا لم يرفضه ولم يتحمس له ، واكتفى ببيان ماهيته ورسم حدوده وبيان حقوقه وواجباته فيدخل فيه رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده فى الفترة السابقة على اشتراكه فى تحرير صحيفة (العروة الوثقى) •

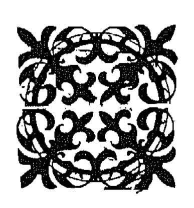
فالطهطاوى يتكلم فى مقدمة كتابه (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) عن حب الوطن والتعلق به ووجوب الاهتمام (بالمنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية) ويورد كثيرا من الأقوال المأثورة فى حب الوطن ، بين حديث شريف ، أو كلام يعزى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حكمة مشهورة أو شعر • ويبين أن الوطن جامعة تجمع ساكنيه على اختلاف الأديان حين يقول : (فجميع ما يجب على المسلم للمسلم يجب على أعضاء الوطن ، من حقوق بعضهم على بعض ، لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية • فيجبُ أدبًا لمن يجمعهم وطن واحد ، التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه ، فيما يخص شرف الوطن وغناءه وثروته ، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية • وهى تكون بين أهل الوطن الواحد على السَّويَّة ، لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية » •

وشبيهٌ بكلام رفاعة الطهطاوى ماكتبه محمد عبده فى الفترة السابقة على اشتراكه فى تحرير (العروة الوثقى) ، من مثل مقاله الذى نشره فى صحيفة (الوقائع المصرية) سنة ١٨٨١ م ، والذى تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفانى فى حبه والذود عنه ،

فقال فيا قال : « تقرر مما سلف أن لابد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ويجتمعون عليها ، اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا • وأن خير أوجه الوحدة الوطن ، لامتناع النزاع والخلاف فيه • » وبعد كلام فى تعريف الوطن عند مفكري الغرب قديمهم وحديثهم ، وما للناس من حقوق فيه وما عليهم من واجبات ، ختم مقاله بقوله : « فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه • فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئا ويشرب فيه مريئا ويبيت فى الأهل آمنا • وهو مقامه الذى ينتسب إليه ولا يجد فى النسبة عارا ولا يخاف تعييرا • وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى حصلت له ، بما أوضحناه من دخوله فى دور الحياة السياسية » •

والى لقاء تال إن شاء الله فى تتمة هذا الحديث •

والسلام عليكم ورحمة الله •





رفض الجامعة الاسلامية

الحمد لله ٠ والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

إلى جانب الفريق الذى كان يتجاهل القومية الجديدة ولا يتكلم حين يتكلم إلا عن الجامعة الإسلامية ، والفريق الذى يعتبر الجامعة القومية أمرا واقعا فى التنظيم الدولى الحديث لا يصح تجاهله ، وُجد فريق ثالث يغلو فى التحمس للجامعة القومية الجديدة حتى يدفعه حماسه إلى إنكار وجود الجامعة الإسلامية بوصفها قوة فاعلة فى التنظيم الدولى ٠ ولا يرى الوطنية إلا جامعة تقوم على المصلحة المشتركة ٠ فالوطن عندهم كما يقول كاتبهم الأول أحمد لطفى السيد فى إحدى افتتاحيات صحيفة (الجريدة) التى كان يرأس تحريرها « هو مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجتهم إلى التعاون فى دفع المضار وجلب المنافع » ٠ ويبدو هذا المفهوم نفسه للوطن والوطنية عند عبدالحميد الزهراوى ، أحدِ أفراد الرعيل الأول من دعاة القومية العربية الذين أعدمهم جمال باشا فى الشام سنة ١٩١٦ م ٠ وذلك حيث يقول فى إحدى مقالاته فى صحيفة (الجريدة) حين كان لاجئا لمصر :

« إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحيانا بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الأمور العامة بشىء من التدقيق ٠ ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث .. أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو أنها مقصد من المقاصد التى يسعى المسلمون لتحقيقها فذلك لا دليل عليه مطلقا ٠ كما أنه لو حُووِلَ إيجادها لاستحال ذلك بالمرَّة على طلابه ٠ فقد علَّمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شىء يجمع الناس إلا

المنافع : فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة فى الجنسية أو وحدة فى الدين » ٠

وأوضح منه فى إنكار (الجامعة الإسلامية) بوصفها مؤسَّسة سياسية ذات فاعلية ، مما يبدو فيه الغلو الجامح ، قولُه فى مقال آخر نشره فى الصحيفة نفسها سنة ١٩٠٧ م :

« ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق فى كلمة واحدة ٠ وهى أن القرآن كتاب الله ، جاء به محمد رسول الله ٠ ولكن المطّلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق يعلم أنه لم يدفع عنهم الاختلاف الذى لا اتفاق معه بعد ٠ فمنذ اختلف المسلمون ثُلِبت جامعتهم ، ولم يتفقوا اتفاقا سياسيا بعد عهد عمر ، ولا اتفاقا دينيا بعد عهد على ٠ فما هى جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرنا اختلافا سياسيا واختلافا دينيا ، يقتل بعضهم بعضا ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس ؟ ما هى جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئةٍ منهم فئةً أخرى منذ مقتل خليفتهم الثانى إلى يومنا هذا ؟.. ما هى جامعة قوم يُسَرُّ ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ ... ما هى جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا شرقيا (هولاكو) اكتسح بلادهم وهم فى عِزِّهم ، فلم تتضامّ أيديهم على مقاتلته ، وكانت لا تزال قوية على قتال بعضهم بعضا ؟ .. وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا غربيا (الصليبيين) هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حرَّكت الهمَّة طائفة منهم قَوِيَتْ وحدَها على صده ؟ » ٠

من الواضح أن هذا الفريق من المفكرين لا يقيم للدين وزنا ٠ بل لا يبدو أنهم يصدرون فى تفكيرهم عن إيمان مستقر فى ضمائرهم يدعوهم إلى تدبر عاقبة أمرهم فيما وراء الموت ، بحيث يكون ذلك موجها لسلوكهم أو مؤثرا فى تفكيرهم ٠ فهم يدعون إلى توفير أسباب المتعة فى هذه الدنيا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير فيما وراءها ٠ بل إنهم لا يتعمقون التفكير فيما ينفعهم فى هذه الدنيا ٠ فالمفروض أن المسلمين حين يجتمعون على رابطة الإسلام يتعاونون فيما فيه صالحهم ، ويتبادلون

المنافع بما يحقق الخير العام لجماعتهم • وقد أثبت التاريخ المعاصر أنهم قادرون على ذلك ، وأن هذا التعاون يمكن أن يكون قوة مؤثرة فى مجال السياسة الدولية • وقد تنبه لذلك باحثو الغرب أنفسهم فحذروا منه وخطّطوا لتفاديه • وهذا هو جب H.R.Gibb يشير فى مقدمة* كتاب (إلى أين يتجه الإسلام Whither Islam?!) إلى وحدة الحضارة الإسلامية التى تجعل من العالم الإسلامى كتلة خطيرة مترامية الأطراف تحيط بأوربا إحاطة محكمة ، وتهدد بعزلها على العالم ، ويقدم مختلف الخطط لتفتيت هذه الوحدة الحضارية •

وشبيهٌ بما ذهب إليه لطفى السيد والزهراوى ما قاله أنيس الخورى المقدسى فى استفتاء مجلة (الهلال) عن نهضة الأقطار العربية وتآلفها سنة ١٩٢٣ م ، فقد استبعد عنصر الدين ، ثم قال : « ولقائل أن يقول : إذا لم يكن الدين أعظم جامعة لسكان الأقطار العربية • فأية جامعة هناك تقوم مقامه ؟ أى قوة تستطيع أن تضم هذه الأقطار وتؤلف فى كل منها وحدة قومية ؟ هناك قوة واحدة تستطيع ذلك هى اللغة • فاللغة العربية وآدابها وما إلى ذلك من تاريخها وتاريخ رجالها هى الأداة الوحيدة التى يمكن أن تجمع شتات العناصر فى كل قطر عربى وتجعل منها أمة حية نامية » •

ومن أجل ذلك كان يحلو لهذا الفريق من الناس حين يتكلمون عن (الشعوب العربية) أن يطلقوا عليها (شعوب العربية) أى الشعوب التى تتكلم العربية ، لأنهم لا يعترفون بالعروبة صفة لهذه الشعوب لارتباطها فى أذهانهم بالإسلام ، ولكنهم يرونها صفة للغة التى هى عندهم جامعتهم الوحيدة • ولذلك اتخذت الدعوة إلى القومية العربية فى طور نشوئها الأول شكلا لغويا ، فظهر بين دعاتها الأولين من المسيحيين بنوع خاص عددٌ كبير من الباحثين فى اللغة العربية والأدب العربى أمثال البستانى واليازجى والشدياق وأديب إسحق وشميل ونقاش وتقلا ومشاقة وزيدان ونمر وصرُّوف • وكانت كثرة كبيرة من هؤلاء تناصر (القومية العربية) بدافع من عدائها

للجامعة الإسلامية ، ورغبتها فى استبدال الحماية الفرنسية بالحكم العثمانى • وفى ظل هذه الحركة شاعت الأسماء العربية بين من وُلدوا فى عصر هذه الدعوة من المسيحيين ، بدلا من الأسماء المستعارة من الأوربيين • وشاع بينهم الكلام فى تمجيد كثير من أبطال المسلمين وخلفائهم ، بل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، بوصفهم من عباقرة العرب وزعمائهم الأفذاذ ، وأُلِّف فى ذلك شعر كثير وكُتبٌ وقصص ، خُدِع بها كثير من سُذَّج المسلمين ، واعتبروها مظهرا للتسامح • والواقع أنها كانت فى حقيقة أمرها مظهرا للتصور القومى المتطرف الذى يتجاهل الجامعة الإسلامية ويسقطها من حساب المقومات التى تقوم بها الأمم • والمسلم الذى ينخدع بها ينسلخ من إسلامه • فالصفة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رسول يصدع بما يوحى إليه • بل إن هذه هى صفته الوحيدة على سبيل الحصر والقصر بنصّ القرآن الكريم (وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُل) • فكلامه وعمله ليس مظهرا للعبقرية فى الفن أو الفكر أو السلوك أو السياسة • ولو نزل كلامه وعمله هذه المنزلة لخضعا للنقد وأصبحا يمثلان وجهة نظر تقبل النقاش وانتفت عنهما صفة الوحى والعصمة • وكذلك الشأن فى أصحابه المهديين • فليس الذي أتوه مما يعجز عنه الرجال من آثار عبقريتهم ، كما حلا لبعض كتاب المسلمين أن يسميه ، تقليدا لكتاب القومية العربية من المسيحيين والليبراليين من المفكرين • ولكنه من آثار الإسلام الذى صنعهم على هذا المثال ، وهداهم إلى العمل على ذلك المنوال •

وإلى لقاء تال إن شاء الله ، أحدثكم فيه عن الفريق الرابع الذى لا يرى تعارضا بين الجامعة الإسلامية والجامعة القومية • والسلام عليكم ورحمة الله •



٩

التوفيق بين الجامعة القومية والجامعة الاسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله · وبعد ··

انقسم المفكرون والكتاب إزاء الجامعة القومية الوافدة أربعة أقسام ، وقد تحدثنا عن القسم الأول الذى يتجاهلها ولا يعرف له رابطة غير الجامعة الإسلامية · وتحدثنا عن الفريق الثانى الذى اعتبرها أمرا واقعا لا يجدى تجاهله ، فتكلموا فيها دون أن يتحمسوا لرفضها أو قبولها وإن كانوا قد رأوا أنها لاتخلو من بعض وجوه الخير · وتحدثنا كذلك عن الفريق الثالث الذى تحمس للجامعة الجديدة الوافدة تحمسا شديدا دفعه إلى إنكار الجامعة الإسلامية ومهاجمتها · وبقى أن أتكلم عن الفريق الرابع الذى لا يرى تعارضا بين الجامعة القومية والجامعة الإسلامية ·

كان يمثل هذا الفريق فى مصر زعيم سياسى شاب مات مبكرا وقد جاوز الثلاثين من عمره بقليل اسمُه مصطفى كامل ، وقف حياته القصيرة على الدعوة إلى حب مصر ومهاجمة الاحتلال الإنجليزى ، وكان كلامه عن مصر يشبه هيام العشاق المفتونين بمن يعشقون · يتجلى ذلك فى أشهر خطبه التى ألقاها فى الاسكندرية سنة ١٩٠٧ م ، والتى كان يحفظها كثير من شباب جيله كما يحفظون الشعر · وفيها يقول :

« بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى · لك حياتى ووجودى · لك دمى ونفسى · لك عقلي ولساني · لك لُبـي وجَنانـي · فأنـت أنـت الحياة ، ولا حياة إلا بك يامصر » ·

« يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها · هل يستطيع مصري أن

يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعوه إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها » ٠

« ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ٠ واقرءوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ إنى لو لم أُولَدْ مصريا لوَدِدْتُ أن أكون مصريا » ٠

هذا الحديث العاطفى الذى يلتهب حرارة عن الوطن والوطنية هو مادعا شوقى لأن يقول فى مصطفى كامل حين رثاه :

ياصبَّ مصرَ وياشهيدَ غَرامها ... هذا ثرى مِصْرٍ فَنَمْ بأمان

وهو نموذج للأدب الوطني الرومنسي الوافد على البلاد الإسلامية ، والذى تبرز معالمه فى شعر أحمد محرم المعروف بنزعته الإسلامية الصادقة حيث يقول :

أَلِى فى الهوى مالِى وللآئم العذر ... أما يعلم اللُوّام أن الهوى مِصْرُ
فإن يسألوا ما حب مصر فإنه ... دمى وفؤادى والجوانح والصدر
لنفسى وفائى إن وفيتُ بعهدها ... وبى ـ لا بها ـ إن خنتُ حُرمتها الغَدْر
أخاف وأرجو ، وهى جهد مخافتى ... ومرمَى رجائى ، لاخفَاءٌ ولا نُكْر
هى العيش والموت المبغَّض والغِنَى ... لأبنائها والفقر والأمن والذعر
هى القدر الجارى ٠ هى السخط والرضى ... هى الدين والدنيا هى الناس والدهر
بذلك آمنا ٠ فيا من يلومنا ... لنا فى الهوى إيماننا ولك الكفر

والغلو المسرف الذى يكاد يهْلك صاحبه ويُدنيه من الشرْك واضح فى هذا الشعر وأمثاله ٠ فشوقى ـ على ماهو معروف من صدق عاطفته الإسلامية فى كثير من شعره يقول فى الوطن ، حين أذنت السلطات الإنجليزية له بالعودة إليه بعد أن أُبعِد عنه منفيا طوال فترة الحرب العالمية الأولى :

وياوطني لقيتك بعد يأس كأني قد لقيتُ بك الشبابا
وكل مسافر سيئوب يوماً إذا رُزق السلامة والإيابا
ولو أني دُعيت لكنتَ ديني عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليكَ قبل البيت وجهي إذا فُهتُ الشهادة والمتابا

وهذا تهور وشطط فى القول لايشفع له جمال الشعر ، ولا يصلح شيءٌ أن يكون له عذرا مقبولا • ولكنْ كذلك كان أسلوب أصحاب الجامعة الوطنية الوافدة ، عاطفيا مندفعا طائشا ، يجمح بصاحبه حتى يخرج به عن الطريق •

ولم يكن أصحاب هذا الاتجاه ينكرون أنهم متأثرون بالوطنية الأوربية • ولكنهم فى الوقت نفسه لم يكونوا يرون تعارضاً بين الجامعة القومية الطارئة وبين الجامعة الإسلامية التليدة • فمصطفى كامل يقول فى خطبة له سنة ١٨٩٧ م « إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد • والأساس المتين الذى تُبْنَى عليه الدول القوية والممالك الشامخة ، وكل ماترونه فى أوربا من آثار العمران والمدنية ماهو إلا ثمار الوطنية » • ويقول فى خطبة أخرى سنة ١٩٠٠ م :

« قد يظن الناس أن الدين ينافى الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية فى شيء • ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه • ولستُ فيما أقول معتمدا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولكنى أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها • فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم معها محبة الأوطان » •

ومصطفى كامل هو نفسه الذى يدعو فى صدر كتابه (المسئلة الشرقية) إلى شد أزر الجامعة الإسلامية ممثَّلةً فى الخلافة العثمانية ، ويهدّد إنجلترا بأن أى مَساسٍ بها

سيكون مَجْلبة لحروب مدمرة حيث يقول : « إن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام سيكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحربٍ دموية لاتُعدّ بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية ٠٠ فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور أَن دولة آل عثمان لاتزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجرى كالأنهار والبحار فى كل واد » ٠

وفى ذلك المعنى يقول شوقى فى قصيدته (مسجد أيا صوفيا) التى كتبها **١٨٩٧** م والتى بدأها بقوله :

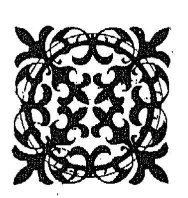
كنيسة صارت إلى مسجد ... هدية السيد للسيد
قد جاءها الفاتح فى عصبة ... من الأسود الركَّع السُّجَّد
رمى بهم بنيانها مثلما ... يصطدم الجلمد بالجلمد
فكبّروا فيها وصلى العِدا ... واختلط المشهد بالمشهد
وما توانى الروم يفدونها ... والسيف فى المَفْدىّ والمفتدى
فيالثأرٍ بيننا بعده ... أقام لم يقرب ولم يبعد
باق كثأر القدس من قبله ... لا ننتهى منه ولا يبتدى
فلا يغُرَّنّك سكون الملا ... فالشر تحت الصارم المغمَد
لن يترك الروم عباداتهم ... أو ينزل الترك عن السؤدد
هذا لهم بيت على بيتهم ... ما أشبه المسجد بالمسجد
فإن يعادوا فى مفاتيحه ... فياليومٍ للورى أسود
يشيب فيه الطفل فى مهده ... ويُزعَج المَيْتُ من المرقد
فكن لنا اللهم فى أمسنا ... وكن لنا اليومَ وكنْ فى غد

وأوضحُ من ذلك كله وأظهر اعتدالا وأبعد عن الغلو والشطط وعن مواطن الزلل ماورد فى خطاب حسن البنا مؤسس إحدى الدعوات الإسلامية الكبرى فى العصر

الحديث ، فى المؤتمر الخامس بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين (١٩٤٧ ـ ١٣٥٧ هـ) حيث يقول :

« إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا من أن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى الوطن على سواه • ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض • ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام » •

« وأنا فى غِنى بعد هذا البيان عن أن أقول إنه لاتعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار • وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ، فإذا أراد قوم أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحا يُـميت الشعور بما عداها فالإخوان المسلمون ليسوا معهم • ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس »



١٢

الجامعة المصرية والجامعة العربية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كانت الجامعتان القوميتان الطارئتان اللتان تنافسان الجامعة الإسلامية هما الجامعة المصرية فى مصر ، والجامعة العربية فى جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام • أما الجامعة المصرية فكان يتزعمها فريق من المثقفين ثقافة غربية وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد ، ومعهم فريق من الموالين للاحتلال الإنجليزى الذين ترتبط مصالحهم به ، وكانت تمثلهم صحيفة (الجريدة) التى قدمنا نماذج من بعض ما كانت تنشره • وأما الجامعة العربية فكان يتزعمها الشريف حسين وأولاده على وعدٍ من الإنجليز أن يجعلوه ملكا على الدولة العربية التى تشمل جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وأن لا يعارضوا فى تنصيبه خليفةً على المسلمين • وخاض الحرب هو وأولاده فى سبيل ذلك إلى جانب الحلفاء حتى دخلوا دمشق تحت رايته ، راية الثورة العربية • ثم خابت آمال الشريف حسين وتبين له بعد فوات الوقت أن الإنجليز خدعوه ، وأنهم اتفقوا مع فرنسا على تقسيم هذه المنطقة بينهما ، ومع اليهود على منحهم وطنا قوميا ، فى نفس الوقت الذى وعدوه فيه بأن يكون ملكا عليها • وتم هذا التقسيم بعد الحرب ، فاحتلت إنجلترا العراق وشرق الأردن وفُرِضت وصاية على فلسطين تحت إشرافها تمهيدا لإقامة دولة إسرائيل ، واحتلت فرنسا سوريا ولبنان • ونشأت فى هذه البلاد قوميات مستقلة تشبه القومية المصرية •

وفى ذلك يقول الشاعر أحمد محرم مخاطبا فيصل ابن الشريف حسين حين مرّ بمصر سنة ١٩٢٠ م :

نزيلَ النيل أين تركت ملكا ألـمّ ببابـك العـالى نزيلا

وأين التاج يرفع فى دمشق فيصدع هامة الجوزاء طولا
وأين الجند حولك تزدهيه مواكب تحمل الخطر الوبيلا

ولا يزال الشاعر يصور لفيصل وأبيه آثار غدرهما بدولة الإسلام • ثم يطلب إليه فى ختام القصيدة أن يثق بالله وأن يستغفره مما جنت يداه ، مؤملا أن تكون هذه الكارثة مفتاحا للفرج ، ومنبهة للمسلمين إلى استئصال جرثومة الداء :

أظل جموعهم حدث مهول ليكشف عنهم الحدث المهولا
وما شق الدواء على مريض إذا ما استأصل الداء الوبيلا
قل اللهم غفار الخطايا إليك نتوب فارزقنا اليقينا
عرفنا الحق بعد الجهل إنا وجدنا الجهل للأقوام غولا

وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائه للشريف حسين حين يقول :

قم تحدث أبا علىٍّ إلينا كيف غامرت فى جوار الأراقم
لم تبال النُيوب فى الهام خُشْنا وتعلقت بالحواشى النواعم
هات حدِّث عن العَوان وصفها لا تُرَعْ فى التراب ما أنا لائم
كلُّنا واردُ السراب وكلٌّ حَمَلٌ فى وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنائم حظا ووردنا الوغى فكنا الغنائم

أما القومية المصرية فقد انتهى أمرها بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا وسقوط الخلافة الإسلامية إلى أن أصبحت دعوة انعزالية تتجاهل كل رابطة تتجاوز حدودها ، وتنكر وجود أى صلة بين مصر وبين غيرها من البلاد العربية أو الإسلامية •

وبلغ الغلو ببعض المفكرين والأدباء أن دعوا إلى إنشاء أدب مصري خاص يتميز عن الأدب العربي •

وفى ظل هذه الدعوة أطلت النعرة الفرعونية برأسها وأسفرت عن وجهها ، بعد أن كانت لا تظهر إلا مقنّعة أو من خلف ستار • وانتهز دُعاتُها هذه الفرصة المواتية ، فنشطوا لغزو الأفكار بها ، وملئوا أبصار قارئى الصحف وأسماع شاهدي الندوات

بالدعاية لها ، ورسموا رأس أبى الهول على طوابع البريد وعلى أوراق النقد ، كما فعل الترك بالذئب الأغبر • واتخذه النحّات محمود مختار شعارا لتمثال نهضة مصر ، الذي وُضِع نموذجه فى باريس سنة ١٩٢٠ م ، واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعارا لها يمثله وثَن من معبودات الفراعنة • ونقلت رفات سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات إلى ضريح بُنى على طراز فرعوني ، وشاع هذا الطابع فى كثير من أبنية الحكومة وأوراقها الرسمية ،وفى الزخرفة والنقش• ووقف حافظ إبراهيم فى الحفل الذى أقيم فى فندق (الكونتيننتال) لتكريم عدلى يَكَنْ بعد عودته من أوربا قاطعا المفاوضات مع الإنجليز سنة ١٩٢١ م ، فألقى قصيدة تسيطر عليها هذه النزعة الفرعونية من أولها إلى آخرها [وفيها يقول] :

وقف الخَلْــق ينظــرون جميعا	كيف أبنــى قواعــد المجــد وحدي
وبُنــاة الأهــرام فى سالف الدهـ	ـرِ كفَونــى الــكلام عنــد التحدي
أنــا تاج العــلاء فى مَفْــرِق الشر	ق ودُرّاتــه فرائــد عقدي
أىُّ شيء فى الغــرب قد بهَــرَ النا	س جمــالا ولــم يكن منــه عندي ؟
هل وقفتــم بقِمّــة الهــرم الأكـ	ـبر يومــاً فَريْتُمــو بعض جهدي ؟
هل رأيتــم تلك النقــوش اللواتى	أعجَــزَتْ طوْقَ صنعــة المتحدِّي ؟
حال لون النهــار من قِدَم العهـ	ـد ومــا مسَّ لونَهــا طولُ عهد
هل فهمتــم أسرار ما كان عندى	من علــوم مخبــوءةٍ طَيَّ بَرْدِي ؟
ذاك فنُّ التحنيط قد غَلَــب الدهـ	ـر وأبلىَ البِلىَ وأعجــزَ نِدِّي
قد عقـدت العهــود من عهــد فرعو	ن ففــى مصرَ كان أول عَقْد

وتتملك النعرة الفرعونية الشاعر ، فيفاخر بالفراعنة كل حضارة قديمة حين يقول :

أنــا أمّ التشريع قد أخــذ الرُو	مَانُ عنــى الأصــول من كل حَدّ
ورصــدت النجــوم منــذ أضاءت	فى سماء الدجــى فأحكمــتُ رصدي
وشــدا (بنْتَئُــورُ) فوق ربوعى	قبل عهد (اليونان) أو عهد (نجد)

وهكذا يبدو أن عهد (نجد) وشعرائه ليس له من الكرامة عند الشاعر أكثر مما لعهد اليونان وشعرائه ، أو الرومان ورجال القانون فيه ٠

واجتاحت مصر موجة من الفرعونية تحاول أن تغزو سائر النواحى الثقافية ، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية ٠ وتزعمت صحيفة (السياسة الأسبوعية) هذا الاتجاه الجديد ، فأفسحت صدرها لدعاته ، وكثر حديثها عن الفراعنة ، فلم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارتهم وثقافتهم ومجدهم ٠ وكتب رئيس تحريرها فى مقال عن (مصر الحديثة ومصر القديمة) يزعم أن ما يتوهمه بعض الناس من أن تغير الدين فى مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام ، وتغير اللغة فيها من الهيروغليفية إلى العربية ، قد قطع ما بين مصر الحديثة وبين مصر القديمة من صلات ، ليس إلا وَهْماً من الأوهام ، وأن الحقيقة العميقة هى أن هذه الصلة قائمة لاشك فيها بيننا وبين أجدادنا الفراعنة ٠ ويشطح بالكاتب خياله فى خاتمة مقاله ، فيتخيل هذه الفرعونية التى يدعو إليها دينا جديدا سيغزو بمبادئه العالم هاديا ومبشرا ، ليحقق به الناس السعادة والمتعة والطمأنينة ، حين يَمَلّون نشاطهم المادى الذى لابُدَّ أن يقف فى يوم من الأيام ٠ « ويومئذ يشعر العالم بظمأ إلى الحياة النفسية الفنية ٠ ولعله واجدُها فى هذا الذى نطلب إلى مصر أن تقوم به اليوم » ٠

ويعجب السامع إذا عرف أن كاتب هذا المقال هو (محمد حسين هيكل) الذى أعلن توبته عن خطئه مِنْ قريبٍ فى مقدمة كتابه (فى منزل الوحي) الذى صدر سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) حيث يقول :

« وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياتّه الروحية ، لنتخذها جميعا هُدًى ونبراسا ، لكننى أدركت بعد لَأْيٍ أننى أضع البذر فى غير منبته ، فإذا الأرضُ تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ٠ وانقلبتُ ألتمس من تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحي هذا العصر يُنشِيء فيه نشأة جديدة ٠ فإذا الزمن ، والركود العقلى ، قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سببٍ قد يصلُح

بذرا لنهضة جديدة • ورؤأتُ فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحدَه البذر الذى يُنبت ويُثمر • ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو • ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرَها بعد حين » • ثم يبين هيكل ما تمتاز به المبادىء الإسلامية من مزايا إنسانية تجمع أتباعها على أُخوَّة خالصة تتفوق بها على ذلك الذى نقلناه عن الغرب فيما يدعو إليه « من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحداتٍ متنافسة ، تَحَكُم أسبابُ الدمار بينها فيما تتنافس عليه » •

لذلك كان فرح الإسلاميين فى مصر عظيما ببزوغ فجر الجامعة العربية التى تدعو إلى جمع شمل العرب من أقصى المشرق فى العراق إلى أقصى المغرب على شاطىء المحيط • ورأوا فيها منقذا من النزعة الفرعونية التى تمكنت من قلوب الشباب ، كما رأوا أنها أفضل بديل مُتاحٍ من الجامعة الإسلامية التى تفككت عُراها بسقوط الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الدولة التى كانت قِوامَ أمرها وواسطةَ عِقْدِها • ولذلك أيضا كان موقف دعاة العزلة والوطنيات الإقليمية ودعاةِ اللبرالية اللادينية من هذه الجامعة العربية هو نفسُه موقفَهم بالأمس من الجامعة الإسلامية • لأنهم كانوا يرونها ظِلاًّ لها أو قبَسا من نورها •

ولكن فريقا من الاسلاميين ظلوا متأثرين بالظروف التى أحاطت نشأة الجامعة العربية حين كانت فكرة ومبدأ ، وبعد أن أصبحت مؤسَّسة سياسية ، وظلت فى تقديرهم فرعا من الاتجاه القومي الوافد على بلاد المسلمين من أوربا ، والذى كان سببا فى تمزيق الجامعة الاسلامية • وزادوا إعراضا عنها حين انحرفت من بعدُ عن طريق الإسلام ، بتسلل زعامات غير إسلامية أقحمت عليها مذاهب ومناهج فى السياسة والاقتصاد تناقض الإسلام مناقضة ظاهرة • وانتهى الأمر إلى أنْ نَفَض بعض أنصار الجامعة الإسلامية أيديَهم من الجامعة العربية ، فتركوا الميدان مفتوحا لتحريفات المحرِّفين فى هذا الميدان • ولم يكن الإسلاميون فى ذلك على صواب • فقد كان عليهم أن يعرفوا أن فى الدول التى تضمها الجامعة الإسلامية من

الانحرافات مِثْلَ الذى يَشْكون منه فى الجامعة العربية أو أكثر . فيهم أقليات غير مسلمة . وفى مسلميهم عدد كبير من المتفرنجين والمفتونين بالحضارة الغربية . وفيهم عدد كبير من دعاة القومية المتطرفين الذين يرون أن الجامعة الوطنية لا تقوم إلا على المصالح المشتركة ، وأن الدين لا يصلح لأن يكون أساسا لتجمع سياسى . والعاطفة الإسلامية إن كانت حية فى جماهيرهم ، فالذين يوجهون الفكر من الساسة والكتاب ورجال الإعلام وأجهزة التعليم من المتفرنجين وأصحاب الثقافات الغربية فى كثرتهم الغالبة . وما العرب إلا مسلمون . بل هم جرثومة الإسلام وأصلُه الأول وقلبُه النابض . فإذا عجّزنا عن تقويم جامعتهم وحملها على الإسلام ، فنحن أعجَزُ عن تقويم جامعة المسلمين وحملها عليه . فلنبدأ بما بدأ به الإسلام حين أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُنْذِر عشيرته الأقربين ، دون أن يمنعنا ذلك من العمل فى الوقت نفسه لجمع شمل المسلمين . على أن المسلمين ـ والدعاةُ منهم بخاصَّةٍ ـ مكلفون أن يواجهوا الانحراف فى قومهم وأن يصححوا ما اعوجّ من مفاهيم المجتمع العربى . ومِنْ أهم ما يدخل فى ذلك مفاهيم (القومية العربية) ، التى أفضل أن أسميها (الوحدة العربية) . أما أن ندعو إلى (الجامعة العربية) حين كانت (الجامعة الإسلامية) حقيقة قائمة . ثم ندعو إلى (الجامعة الإسلامية) حين أصبحت (الجامعة العربية) حقيقة ماثلة ، فما ذلك برأىٍ ، ولا هو بوجه الحزم والصواب عند أصحاب الجِدِّ والعَزْم .

والسلام عليكم ورحمة الله .





سقوط الخلافة الإسلامية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

لانستطيع أن نختم الكلام عن الصراع الذى دار بين الجامعة الإسلامية والجامعة القومية قبل أن نقف وقفة قصيرة عند أقسى محنة مرت بها الجامعة الإسلامية فى هذا القرن ، بل فى تاريخها الطويل منذ ظهور الاسلام ، وهى إلغاء الخلافة الإسلامية ، الذى شغل شعراء المسلمين وكُتّابهم ومفكريهم فى أقطار الأرض •

تمخضت الحرب العالمية الأولى وما ترتب عليها وتلاها من تقلبات عن أخطر ظاهرة فى حياة الإسلام والمسلمين • فللمرة الأولى فى حياتهم سقطت الخلافة ، بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، تنقّل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة ، ولكنه ظل فى كل الأحوال رمزا للرابطة التى تجمع بين المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، وظلت الدولة القائمة بأمر الخلافة مكلفة فى نظر المسلمين برعاية شئونهم واسعاف منكوبيهم والأخذ بيد ضعيفهم وإقامة شريعة دينهم وشعائره ، فكانت على ماقال شوقى فى رثائها عند إلغائها :

جمعَتْ على البِرِّ الحضورَ • وربما جَمَعَتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح

وكانت دولة الخلافة تقوم بواجبها كاملا أو تفرِّط فيه وتتساهل فى بعضه حسب الظروف والأحوال •

وقد يبدو الأمر غير خطير إلى حد الإزعاج فى أعين أبناء هذا الجيل ممن لم يعرفُوا الخلافة الإسلامية ، وممن يتخيلون أنها طراز من الأشكال التاريخية التى طواها الزمن • ولكنَّ شعور الذين عاصروا الخلافة الإسلامية ووُلدوا فى ظلها وعاشوا فى دولتها كان مختلفا جِدَّ الاختلاف • فقد كانت فى نظرهم وعاءً للإسلام ، ورمزا

لوحدته ، وتحقيقا لوجوده فى قلب الحياة • وكان فزعُهم لإلغائها فزع من عاد يوماً إلى بيته الذى يؤويه ، أو المسجد الجامع الذى يضمه إلى المسلمين فى يوم جمعة أو عيد فوجده مهدوما •

وامتلأت قلوب المسلمين حزنا لمصير الأستانة ، مقرِّ الخلافة ، وقد احتلتها جيوش الأعداء ، وتقاسمها الإنجليز والفرنسيون والطليان ، وسيطروا فيها على كل شىء ، حتى أصبح الخليفة سجينا أو كالسجين • ثم اضطر إلى الهرب بعد أن احتلها الكماليون • وقد عبّر حافظ إبراهيم ـ وهو شاعر لايُعَدّ فى شعراء الجامعة الإسلامية المتحمسين لها ـ عن شعور المسلمين فى قوله ، مخاطبا مسجد أيا صوفيا الذى قرر الكماليون تحويله إلى متحف ، وإعادته إلى صورته الأولى يوم كان كنيسة قبل محمد الفاتح :

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري … عهود كرام فيك صلّوا وسلموا
إذا عدت يوما للصليب وأهله … وحلىَّ نواحيك المسيحُ ومريم
ودقت نواقيس وقام مزمِّر … من الروم فى محرابه يترنم
فلا تنكرى عهد المساجد إنه … على الله من عهد النواقيس أكرم
تباركتَ (بيتُ القدس) جذلان آمن … ولا يأمن (البيت العتيق) المحرَّم
أيرضيك أن تغشى سنابكُ خيلهم … حماك وأن يُمنَى (الحطيم) و (زمزم)
وكيف يذل المسلمون وبينهم … كتابك يُتلَى كلَّ يومٍ ويكرم
نبيك محزون وبيتك مطرق … حياءً وأنصار الحقيقة نُوَّم
عصينا وخالفنا فعاقبتَ عادلا … وحكّمتَ فينا اليومَ من ليس يرحم

وتهدأ نفوس الناس ، ويستيقظ الأمل فى قلوب كاد يقتلها اليأس ، حين يترامى إليهم نبأ ثورة مصطفى كمال فى الأناضول وتمرده على قوات الاحتلال ورفضه ما أملته على تركيا من شروط مُذِلّة قاسية فى معاهدة (سيفر) • وتتعلق آمالهم بالبطل الشاب

وهو يقود المتمردين فى قتال يائس مع اليونان ، الذين انتشروا فى قرى أزمير ، يدمرون كلّ ما يصل إلى أيديهم ولا يرعون لشىء حرمة ، وقد انفصل عن السلطة المركزية ، حيث يعيش (الخليفة) مغلوبا على أمره فى الأستانة ، واتخذ (أنقرة) محلا لحركته ، ودُهِش الناس حين رأوا هذا القتال اليائس ينقلب إلى انتصار يتلوه انتصار ، حتى تم له إجلاء اليونان عن الأناضول كله سنة ١٩٢٢ م بعد أن كبدهم خسائر فادحة ٠

والذى يقرأ قصائد الشعراء الذين هللوا لهذا الانتصار يحس أنهم كانوا يعتبرونه انتصارا للإسلام على المسيحية ، كما يقول اللورد ويفل فى كتابه
Allenby in Egypt

وقد صدق ٠ فشوقى فى قصيدته المشهورة يقرن مصطفى كمال بخالد بن الوليد فى أول بيت من أبياتها حيث يقول :

الله أكبر ٠ كم فى الفتح من عجب — ياخالد الترك جدد خالد العرب

فهذا القائد المظفر هو فى نظره مبعوث العناية الإلهية لإقالة عثرة الخلافة وإحياء مجد الاسلام ٠ فمقامه من الترك هو مقام خالد بن الوليد من العرب ٠ كلاهما قد قاد جيوش المسلمين ، منتقلا بها من نصر إلى نصر ٠ ثم هو يشبِّهه فى جهاده جيوش المسيحية بصلاح الدين الأيوبى فى الحروب الصليبية ، إذا قورنت شهامته وإنسانيته بوحشية الجيوش اليونانية وانتهاكها للحرمات حيث يقول :

حذوت حرب الصلاحيين فى زمن — فيه القتال بلا شرع ولا أدب

ويقرن الشاعر انتصار مصطفى كمال بانتصار المسلمين فى بدر حيث يقول :

يوم كبدر ٠ فخيل الحق راقصة — على الصعيد ٠ وخيل الله فى السحب

ويمضى فى تتويج البطل الظافر ، مصورا فرحه وفرح المسلمين ، الذين تلهج السنتهم بشكر الله على نعمته ٠

وكان المسلمون فى فرحهم بانتصار مصطفى كمال يبررون كل مايصدر عنه ويحملونه على حسن الظن به ، راجين من ورائه الخير . وقد بلغ من حسن ظنهم به أنهم دافعوا عن عمله حين عزل الخليفة عن السلطة وجعل الأستانة مقرا للخلافة المجردة من السلطة ، وجعل أنقرة مركزاً لرئيس الدولة صاحب السلطة . مع أن هذا العمل كان سابقة لا نظير لها فى تاريخ المسلمين . بل لقد بلغ من حماسهم أن هاجموا الخليفة والمفتى الذى أفتى بإهدار دم مصطفى كمال . وفى ذلك يقول شوقى :

أيُقال فتيانُ الحِمَى بكِ قصرّوا ... أم ضيّعوا الحرمات أم خانوكِ
وهم الخِفاف إليكِ كالأنصار إنْ ... قلّ النصير وعزّ من يَفديك
والمشتروكِ بمالهم ودمائهم ... حين الشيوخُ بجُبةٍ باعوكِ
هَدَروا دماءَ الذائدين عن الحِمَى ... بلسان مفتى النار لا مفتيكِ
شربوا على سرِّ العدوِّ وغرّدوا ... كالبوم خلف جداركِ المدكوك
لو كنتِ (مكة) عندهم لرأيتهم ... (كمحمد) و (رفيقه) هجروكِ

وبينما الناس مشغولون بتبرير تصرفات مصطفى كمال والدفاع عما ابتدعه فى الخلافة حين جردها من السلطة وفصلها عن الدولة ، إذا بهم يفاجَئون بالرجل الذى يضعون فيه ثقتهم وآمالهم ويجتهدون فى حمل تصرفاته الـمُريبة على أحسن الوجوه ، يكشف القناع فجأة عن وجهه ، ويُسفر عن حقيقة نواياه ، فيلغى الخلافة ، ويطرد الخليفة وآله وأسرته جميعا إلى خارج حدود تركيا ، بعد أن جرّدهم من كل أملاكهم وأموالهم .

ويرتفع صوت شوقى بقصيدة من أعنف قصائده وأصدقها عاطفة ، يهاجم فيها مصطفى كمال ، ويبكى الخلافة التى ماتت حين ظن الناس أنها قد استقبلت عهدا جديدا كله عزة ، فإذا صوت الباكين يرتفع ، معلنا موتها المفاجىء فى صَخَب المحتفلين

بعرسها ، فتُكفَّن فى ثوب الزفاف ، بين جزع الجازعين ، وذهول الذاهلين ، وعبرات الضاحكين • الدمعُ فى عيونهم وظل الابتسامة فى شفاههم •

عادت أغانى العُرس رَجْعَ نُواح ونُعيتِ بين معالم الأفراح
كُفنتِ فى ليل الزفاف بثوبه ودفنتِ عند تبلج الإصباح
شُيِّعتِ من هلعٍ بعبرة ضاحك فى كل نَاحية وسَكْرة صاحي
ضجت عليكِ مآذن ومنابر وبكت عليكِ ممالك ونواحي
الهند والهة ومصر حزينة تبكى عليك بدمع سحَّاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة مَاحِي

ويعتذر الشاعر عن مهاجمته لمصطفى كمال الذى كان يمدحه بالأمس فيقول :

أستغفر الأخلاق ، لستُ بجاحد من كنتُ أدفع دونه وأُلاحي
مالى أطوِّقه المَلام وطالما طوقتُه المأثور من أمداحي
أأقول من أحيا الجماعة ملحد وأقول من ردَّ الحقوقَ إباحي
الحقُّ أولىَ من وليِّكَ حرمةً وأحقُّ منكَ بنُصرةٍ وكفاح
فامدح على الحق الرجالَ ولُمْهمو أو خلِّ عنكَ نصائح النُصّاح

ويختتم الشاعر قصيدته بأبيات يشير فيها إلى موقفه الثابت من الخلافة ، مشيراً إلى ماكان من تنازع رؤساء المسلمين عليها ، ومعرِّضا بالشريف حسين ، الذى كان فى مقدمة الطامعين فيها بعد أن انضم للحلفاء فى محاربتها :

عهدُ الخلافةِ فيَّ أولُ زائد عن حوضها بيراعه نَضّاح
حبٌّ لذات الله كان ولم يَزَلْ وهوًى لذاتِ الحق والإصلاح
إنِّى أنا المصباح لستُ بضائع حتى أكون فَراشة المصباح
لاتبذلوا بُردَ النبى لعاجزٍ عُزُلٍ يدافع دونه بالراح

بالأمس أوهى المسلمين جِراحةً واليومَ مدَّ لهم يد الجراح
فلتسمعُنَّ بكل أرضٍ داعيا يدعو إلى (الكذاب) أو (لسَجَاح)
ولتشهدُنَّ بكل أرضٍ فتنةً فيها يباع الدين بيع سَمَاحَ
يُفتَى على ذهب المُعِزِّ وسيفه وهوى النفوس وحقدها المِلْحاح

وقد ظل هذا الجرح حيا يتجدد فى القلوب كلما حل بالمسلمين رزء جديد • وهذا هو أحمد محرم تعود به ذاكرته إلى تلك الأيام ، حين أعدم الطليان البطل الليبي الشهيد (عمر المختار) سنة ١٩٣١ م فيقول :

وارحمتا للمسلمين تفرقوا وتباعدوا فى الأرض بعد تداني
فلئن بكيتُ لقد وجدت مُصابهم فى مَنكِبِى وجوانحى وجَناني
مابالدموع المستهِلَّةِ ريبة هى فى الجفون عصارةُ الوجدان
مَنْ كان أبصر خَطبهم فأنا الذى مارسته ولمسته ببنَاني
مازلتُ أجمع بالقريض شَتاتهم حتى انقضى أدبى وضاع زماني

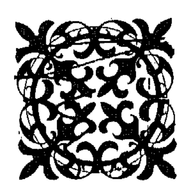
ومن أحسن ماكتب فى مهاجمة مصطفى كمال وتصوير انحرافه مقال (مصطفى صادق الرافعى) « تاريخُ يتكلم » • وقد جاء فيه :

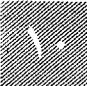
« إن هذا الطاغية مَلِكُ حاكم ، يستطيع أن يجعل حماقته شيئا واقعا ، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم ، ويقتل مدارس الدين بإخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق من المسلمين كلَّ ذى عمامةٍ فى عمامته • ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوة ، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله الله الذبابة التى تصيب الناس بالمرض ، والبعوضة التى تقتل بالحمى ، والقملة التى تضرب بالطاعون • فلو فخَرَتْ ذبابة ، أو تبجحت قملة ، أو استطالت بعوضة ، لجاز أن يَطِنَّ طنِينُه فى العالَم • وهل فعل أكثر مما تفعل ؟ »

« إنه والله ماقَتَل ولا شَنق ولا عَذَّب • ولكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزه ذلك النوع السامي من الموت الأول ، الذى كان حياة الفكر ومادةَ التاريخ ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها • »

« لقد أحياهم فى التاريخ • أما هم فقتلوه فى التاريخ • وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين • أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعا » •

« كأنه لايعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لاعلى التاريخ ؛ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم ، لاعلى قلوبهم وطباعهم وميراثهم من أسلافهم ، فما هو إلا أنْ يهلك حتى ينبعث فى الدنيا شيئان : نَتَن رِمّته فى بطن الأرض ، ونَتَنُ أعماله على ظهر الأرض ، إن هذا الرجل المسلَّط كالغُبار المستطار ، لايُكنَس إلا بعد أن يقع • »





الاسلام ونظم الحكم المعاصرة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

إلى جانب الخلاف الذى نشأ حول تصور الأمة والدولة والوطن ، هجمت على المسلمين ألوان من الفكر السياسى وتطبيقاته فى نظم الحكم والإدارة فتن بها كثير من الناس ، حتى لقد بدأ الإسلاميون يبحثون عن مَشَابه ويفتشون عن نماذج ووقائع تلتقى فيها هذه النظم مع الإسلام • بل لقد نسبها بعضهم للإسلام أو نسب الإسلام لها ، حين وصفوه تارة بأنه ديمقراطى وتارة أخرى بأنه اشتراكى ، وتارة ثالثة بأنه أول من دعا إلى الحرية الفردية وتحرير المرأة • وليس الإسلام من ذلك كله فى شىء • وظن كثير من السذج أن فى هذا النسب الذى اختلقوه ما يحبب الإسلام إلى هذا الجيل المفتون بتلك النظم الوافدة والتى تحفها دعايات نشطة واسعة تصور للناس أنها هى الحل لما يشكون منه ، وأن حياتهم ستطيب فى ظلها فيتخلصون من الظلم والفاقة والمرض والحرمان ويعيشون حياة طيبة سعيدة تخلو من المنغصات • والظلم والفاقة والمرض و الحرمان كلها آفات يتعرض لها الناس أحيانا فى ظل أى نظام ، لأنها من نواميس الله فى خلقه ، يبلوهم بها ويمحّصهم ويزكّيهم • ولكن المؤمنين يعيشونها ويتعرضون لها ويقاومونها وهم راضون بقضاء الله العليم الحكيم ، مُقِرُّون بقصور معرفتهم وتقديرهم فى جانب علمه وحكمته • فيعانون منها دون أن تضطرب نفوسهم لها ، ودون أن يتعرضوا للصراع النفسي الذى يعانى منه الواقعون تحت تأثير الدعايات التى تدعوهم للثورة عليها ، وتلوِّح لهم بجنة سعيدة من السراب تخلو منها ، فى ظل هذا النظام أو ذاك •

والمخدوعون بهذه الدعايات كثرتهم من الشباب البرىء القلب الخصب الخيال

الطموح إلى المثالية ، أو الجانح إلى ما يدعوه إليه داعى الشباب من الشهوات • لذلك تخلبه الصور المثالية التى تقدمها هذه الدعايات ، لأن خياله أقوى من عقله ، ولأن آماله التى لا تحدها حدود أوسع من تجربته ومن خبرته النابعة من ممارسته ، أو لأن فورة الشباب وطغيان الشهوة أغلب على سلوكه من الأناة وتدبر العواقب • وقد لا يبالي فى طموحه وخصب خياله وسعة آماله ونهم شهواته أن تكون هذه النظم التى فُتِن بها مطابقة للإسلام أو معارضة له • فهى عنده صحيحة ومحببة على أى حال • وقد يحاول التخلص مما يعانيه من الأزمة الناشئة عن التمزق الداخلي بنسبة هذه النُظُم إلى الإسلام ، أو بأن يزعم لنفسه أن الإسلام لا يستهدف إلا خير الناس وصالحهم • فهو إذن لا يتعارض مع أى نظام يسعى لإسعادهم • ومَرَدُّ هذا الخلط والخبط راجع إلى أن الناس ـ وشبابهَم على وجه الخصوص ـ يجهلون ، بل ينسَوْن أو يتناسَون ، أن معرفتهم محدودة • ولذلك فإدراكهم للخير والشر محدود • لأن معرفة الخير والشر ، والنافع والضار ، مبنية على الإدراك الكامل لحقائق الأشياء التى لا تحدها حدود الزمان والمكان ، ولعلّتها الأولى وغايتها الأخيرة • والمعرفةُ الإنسانية محدودة بحدود الزمان والمكان • بل هى فى داخل قيود الزمان والمكان محدودة بحدود المتاح للإنسان مما هو غير محجوب عنه ، من الغيب الذى لا تدركه حواسه ولا يتطاول إليه فكره • وهو مع ذلك محجوب عن معرفة العلة الأولى والغاية الأخيرة ، إلا رجماً بالظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا • ومَنْ كان هذا مَبْلَغ عجزه ومنتهى إدراكه كيف يسوغ له أن يعارض مشيئة الله فيما أوحى إلى رسله ، وفيما رسم لهم من الحدود التى تميز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والحلال والحرام ، بدعوى أنه لا يعرف حقيقتها ، ولا يدرك وجه المصلحة والضرر فيها ؟

ومن أروع الأمثلة فى هذا الصدد ما ورد فى سورة الكهف من قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح • خرَقَ العبد الصالح السفينة فأنكر عليه موسى عليه السلام عمله ، لأن عمله فى ظاهر أمره وفى حدود المعرفة المتاحة لأى إنسان شرٌ خالص لا

خير فيه • ولكنه ليس كذلك عند من كشف الله له عن معرفة ماضى أصحاب السفينة وحقيقة حالهم ، وهي أنهم مساكين يعملون فى البحر ، ويعتمدون عليها فى مَعَاشهم ، ولا يستطيعون شراء غيرها • ومن كُشِفَ له عن علم ما سيكون من أنهم سيصادفون مَلِكا ظالما جبارا يأخذ كل سفينة غَصْبا ، وأن خَرْقها سيَعيبها فيتركها الملك لأصحابها • عند ذلك تنقلب الموازين ويظهر الخير فيما كان فى ظاهره شرا خالصا • ويَقْتُل العبد الصالح غلاما دون أن يبدو منه ما يدعو لذلك • ويستنكر موسى عليه السلام عمله ، لأنه لا يعلم ما عُلِّمه العبد الصالح من أن أبويه مؤمنان ، ولا يعلم ما سيكون من مستقبل أمر الغلام وأبويه ، وأنه سيرهقهما طغيانا وكفرا ، وأن الله سيبدلهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحْمًا •

ويجوع موسى والعبد الصالح فى بلد رفض أهله أن يضيّفوهما ، فَيبْنِى فيه العبد الصالح جدارا يوشك أن يتهدم • ويبدو العمل فى حدود المعرفة المتاحة لأى إنسان يراه وَضْعاً للإحسان فى غير موضعه ، وأن أهل هذه القرية الظالمة لا يستحقونه • وكان الأَوْلىَ أن يتخذ عليه العبد الصالح أجرا • ثم يبدو الإحسان فى موضعه الصحيح حين يطلعه على ما علّمه الله مما غاب من حقيقة الحال • فالجدار لغلامين يتيمين فى المدينة ، وتحته كنز لهما ينكشف ويُنهَب إذا سقط ، وما غاب مما كان ، من أن أبويهما كانا عبدين صالحَينْ . وما غاب مما سيكون من أن الغلامين سيستخرجان كنزهما بعد أن يبلغا أشُدّهما •

وقد تبدو بعض الظواهر شرا خالصا ليس فيه للخير مكان • والله يعلم أن فيها من الخير ما يخفى على الخَلْق ، وأن عمران الكون مبنى عليها • وذلك فى مثل قوله تعالى (كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم • وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم • وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم) • وعِلّة جهل الخير والشر فى ذيل الآية (واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون) • يعلم الله ولا يعلم الناس أن عمران الكون فى التنافس

الناشىء من دفع الناس بعضهم ببعض (ولولا دفعُ اللهِ الناس بعضَهم ببعض لفسدت الأرض · ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين) ·

وليس من المحتم أن يكون الخير الخفىّ عن الناس عاجلا يظهر أثره فى هذه الحياة الدنيا · وليس الخير محصورا فى غذاء يملأ البطون أو كساء يختال على الأبدان أو لذة تغرق فيها الحواس · فقد لا يكون الخير عاجلا · وقد لا يكون متصلا بأجسادنا الفانية · ذلك أن الإسلام يعمل للوجود كله وأقله وأتفهه الوجود الدنيوى الأرضى وما يتصل به من حاجات الأجساد · وأبقاه وأدومه ما صحب صاحبه فى وجوده الممتد الذى لا يحصيه علمنا ولا يبلغه خيالنا · فإذا كانت غايات السياسة والاقتصاد إرضاء الشهوات (من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحَرْث) فغاية الإسلام رضا الله · وإذا كانت مطامع الناس محصورة فى إشباع شهوات النفس فهدف الإسلام تزكية النفس وتطهيرها ، بحملها على ما تكره من الجهاد فى السلم والحرب ، وإخراجها عما تؤثر من الدعة والكسل ، لتخرج من سجنها الضيق المحصور فى ذاتها إلى عالم ربانى أوسع وأرحب · على أن كل ما تسعى له السياسات الأرضية يقصرٌ عن بلوغ هدفه القريب من إسعاد الناس فى دنياهم · لأن السعادة حالة داخلية تسكن عندها النفس وتحس الراحة والطمأنينة والسكينة ، فلا يُعذبها شعور بالحرمان مما لا تجد · والدِّين أدنى إلى أن يبلغ بها هذا الهدف من كل سياسات الساسة والفلاسفة · ولكن الله ركّب الحرص والشح فى خلقه لتَعْمُرَ بهم الدنيا وتنتظم ، وليدفع بعضَهم ببعض ، ويبلو بعضهم ببعض · ثم لا يتخلص من ذلك إلا النُّخبة القليل ، بعد الجهاد الشاق الطويل ·



الديمقراطية والاشتراكية والليبرالية :
أين هى من الإسلام ؟

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد

أكثر الذين يحَملون الاسلام على الحضارة الغربية ، أو يحملون الحضارة الغربية عليه ، يقعون لمعرفتهم المحدودة وتجربتهم الفجّة فى كثير من المتناقضات • فهم يصفون الإسلام فى بعض الأحيان بصفات متناقضة ، كالديمقراطية والاشتراكية والتحررية • مع أن الاشتراكية تناقض الديمقراطية والتحررية فى أصولها التى تصدر عنها • فالاشتراكية تقوم فى زعم دعاتها على تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد • والديمقراطية والتحررية تقوم أصولها فى زعم أصحابها على رعاية مصلحة الفرد وتقديس حريته •

وحقيقة الأمر أن الإسلام ليس من ذلك كله فى شىء • فالخلاف الأول بينه وبين هذه المذاهب على اختلافها خلاف أساسى • فالإسلام مبنىٌ أولا وقبل كل شىء على أن حياة الإنسان الأرضية ليست إلا جزءاً من وجود طويل لايعلم مداه إلا الله • ولذلك فهو يسمى هذه الحياة الـمُدْرَكَةَ الحدود (الحياة الدنيا) أى القريبة ، ويسمى ماوراءها (الحياة الأخرى) ، ويقرر أنها (خيرٌ وأبقى) • والإسلام يعمل لصالح هذا الوجود كله ، بينما تعمل كل النُظم التى ابتدعها الإنسان لصالح الوجود الأرضى وحده • والاسلام بعد ذلك نظام ربّانى مستقل قائم بنفسه ، قد يلتقى مع غيره من النظم البشرية فى أشياء ، ولكنّ هذا لا يعنى أنها منه أو أنه منها فى شىء • بل إن التقاءه معها قد يكون التقاءً فى ظاهر الأمر ، مع خلاف أساسى فى اللب والجوهر • فالشورى فى الإسلام التى تشتبه بالشورى فى الديمقراطية تختلف معها فى كثير • فالشورى فى الإسلام لأصحاب الحل والعقد من العلماء والحكماء وأصحاب التجربة

الناضجة والظاهرين فى قومهم ، المشهودِ لهم برجاحة العقل واستقامة السيرة والنزاهة • وهى فى الديمقراطية لكل من هبَّ ودَبَّ ، يستوي فيها رأى الأبله والحكيم ، ورأى النزيه والساقط ، ورأى من يعلم ومن لايعلم •

على أن الشورى فى الإسلام تستهدف أولا وقبل كل شىء تماسك المجتمع الإسلامى وتقوية وشائج المودة بين أفراده ، حتى تصبح الكثرة المتعددة كأنها فرد واحد ذو إرادة واحدة ، وحتى تصبح الأحجار المتفرقة بنيانا يشد بعضه بعضا ، وتصبح الأعضاء المختلفة جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائر الأعضاء بالسهر والحمَّى • بينما الشورى فى الديمقراطية مظهر لصراع المصالح والمذاهب ، وقهر الأقلِ عددا ولو كانوا هم النُخبة الصالحة للأكثرين ولو كانوا على غير الصواب وفى غير طريق الحق • وهدف الإسلام ذاك ، الذى يختلف فيه عن هدف الديمقراطية ، واضح فى الآيات التى وردت فيها الشورى فى القرآن الكريم • فهى فى سورة آل عمران تأديب من الله تعالى لرسوله بآداب القائد والمربِّى والداعية • يدعوه لأن يُلِين للمسلمين جانبه ، ويعفوَ عن زلاتهم ، ويستغفر الله لهم فيما يخطئون فيه ، ويتلَطف إليهم ويُشعرهم بأن لهم وجودا نافعا ورأيا صالحا ، باستشارتهم فيما يهُمُّ به من أمر • كل ذلك من آداب القائد والمربىِّ والداعية ، التى يتألف بها قلوب صَحْبه • ومع ذلك فالشُورى غيرُ ملزِمة للرسول • يَدَع مايدع منها آخرَ الأمر ويأخذ مايأخذ ، حين يَعْزِم متوكلا على الله : (فَبِمَا رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم • ولو كنتَ فظًّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك • فاعفُ عنهم ، واستغفرْ لهم ، وشاوِرْهم فى الأمر • فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله • إن اللهَ يحب المتوكِّلين ـ آل عمران ١٥٩) • هذا أحد الموضعين اللذين وردت فيهما الشورى فى القرآن الكريم • والموضعُ الآخر فى سورة (الشُورَى) • وهو فى وصف الجماعة الإسلامية المُثلَى ، التى تراقب الله ، وَيَبَرُّ بعضُهم بعضا ، بالنفقة على المحتاج ، والعفو عن المسىء ، دون تضييق عليهم فيما تدعوهم أنفسُهم إليه من رد السيئة بمثلها ، إذا لم يُطيقوا حمْلَ أنفسهم على العفو • (فما أُوتيتُمْ من

شيءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا • وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى رَبِّهِمْ يتوكلون • والذين يَجْتَنِبُون كبائرَ الإثم والفواحشَ وإذا ماغضِبوا هم يَغْفِرون ، والذين استجابوا لربِّهِم وأقاموا الصلاة وأمرُهُمْ شُورَى بينهم ومما رزقناهم يُنْفِقون • والذين إذا أصابهم البَغْيُ هم يَنتصرون • وجزاءُ سيِّئةٍ سَيِّئةٌ مثلُها • فمن عَفَا وأصلَحَ فأجرُه على الله • إنه لا يحِبُ الظالمين ـ الشورى ٣٦ إلى ٤٠)

والحاكمية فى الاسلام لله • فكتابُ الله وسُنَّةُ رسوله مصدر الأحكام • بينما الأمة أو الشعب ممثَّلا فى نوّابه هو عند الديمقراطية مصدرُ الأحكام • فالأممُ محكومةٌ فى الإسلام بتشريع الله الحكيم العليم • وهى فى الديمقراطية محكومة بقوانين صادرةٍ عن شهوات الناس ومصالحهم • فالأحكام مستقرة دائمة فى الإسلام • وهى متبدلة متغيرة لاتستقر فى الديمقراطية •

أما الاشتراكية الماركسية فهى تقوم على التسوية بين الناس • وعبارتُهم المشهورةُ فى ذلك (منْ كلٌ بقدر مايستطيع • ولكلٌ بقدر ما يحتاج) • بينما الاسلامُ يُذعن لسُنَّة الله الذى خلق الخَلْق متباينين فى قواهم الجسدية وفى مَلَكاتهم الخُلُقية والنفسية وفى مواهبهم الذهنية والفنّية ، خلقهم متباينين فى قواهم وفى مَلَكاتهم ومواهبهم ، مختلفين فى ألوانهم وألسنتهم ، متفرقين فى أُممهم وشيَعَهم ومذاهبهم وأديانهم • وكان من وراء ذلك كله عِلْمٌ لا نعلمه ، وحكمةٌ لا نحيط بها • ولو شاء لجعلهم أمة واحدة • يُقِرّ الإسلام ذلك ويُذعِن له • ويعرف أن التباين فى الأرزاق هو نتيجة حتمية لهذه السنن التى يبلو فيها الله سبحانه خَلْقَه بعضَهم ببعض • ويضرب فيها الحقَّ والباطل ، ليذهب الزَّبَد جُفاءً ثم لا يمكُث فى الأرض إلا ماينفع الناس •

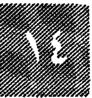
والذين يخالفون سُنَنَ الله ويعاندونها كالوَعِل الأحمق فى شِعْر الأعشى ، الذى ينطح الصخرة ليوهنها ، فلا يَضيرُها ، ولا يَحْطِم إلا قَرْنَه • ولذلك لم يَصْنعْ دُعاةُ الاشتراكية الماركسية شيئا • زعموا أنهم ألغَوا الطبقات • والحقيقة أنهم أوجدوا طبقات من نوع آخر أكبرَ نفوذا وأشدَّ سلطانا وأكثر استبدادا • فزعماؤهم يملكون فى

شعوبهم من السلطة والجاه مالم يملكه مِلكٌ ولا سلطان • وطبقةُ العمال فى استعلائها على سائر الطبقات تجعل الهرم مقلوبا ، قِمّتُه فى أسفله ، لأن الله فضل الإنسان على سائر خَلْقه بالعقل • فسيادة العمال والكادحين تعنى أن المجتمع الإنسانى يخرج من الإنسانية إلى الحيوانية ، لأنه يصبح محكوما بعضلاته لابعقله • وزعموا أنهم ردُّوا على الفقراء مانهبه الأغنياء وأخذوه بغير حقٍّ من فائض قيمة العمل • والواقع يشهد أنهم أفقروا الأغنياء ثم لم يُغْنوا الفقراء • وأنهم عَطَّلوا طاقات الأذكياء القادرين ممن جمعوا الثروات بذكائهم وكفاحهم فى ظل نظامٍ فِطرىّ يُقِرّ الحوافز الشخصية ، ليعطوا الخاملين الذين أصبحوا فى ظل نظامهم يعملون ولا أَمَلَ لهم فى مستقبل أفضل ، أو حياةٍ أخرى أسعد • وأىُّ ظُلمةٍ أحلك من حياةٍ شقية كادحة يهددها المرض والهَرَم ، ويزعجها توقع الكوارث من كل لون ، ثم لايكون وراءها إلا الفناءُ والضياع ؟ لذلك اضطر الماركسيون آخر الأمر إلى التنازل عن كثير من غُلَوائهم ، حتى اشتد الخلاف فى ذلك بين فِرَقهم وورثةِ مبادئهم • ووعد الاشتراكيون الناس بمجتمع سعيد • والواقع يشهد أن الحرمان الذى كان يعيشه المحرومون مع الرضا والتوادّ والأمن خيرٌ من الكَفَاف الذى يعيشونه الآن مع الحقد والكَبْت والخوف • وزعموا أن الزكاة فى الإسلام صَدَقة يستعلى الغنى فيها على الفقير ، وأن الاشتراكية قد أغنت الفقراء عن ذلك ، وجعَلَتْ رزقهم راتبا ثابتا ، هو حقٌ لهم فى مال الدولة • وغاب عنهم مايغيب عن كل من فقد نور الإيمان من أن الزكاة لم تشرع لملء البطون وكساء الابدان ، وان كان ذلك أثراً من آثارها وظاهرةً من نتائجها ، ولكنها شرعت أولاً وقبل كل شىء لتزكية النفوس وتطهيرها ـ واسمها يدل على هذا الهدف النبيل ، فالزكاةُ لُغَةً هى الطهارة ـ ولإخراجها عما طُبِعت عليه من الأثَرة والشُّح • فغاية الاسلام رضا الله • ووسيلته إلى ذلك تنقية النفس لتصبح رَبّانية خالصةً لله صالحةً للقائه • وغايةُ الاشتراكية ـ ككل النظم المادية ـ غاية حيوانية ، تنحصر فى إشباع البطون والشهوات •

أما التحرّرية اللِّبْرالية فهى مبنية على حق الفَرْد فى أن يعتقد مايشاء ويقولَ مايشاء ويفعلَ مايشاء • وهى تحصر سلطاتِ الدولة فى حفظ الأمن وفى الدفاع ضد العدو ، وفى القضاء بين الناس فى خصومة المتنازعين • والإسلامُ يُقِرّ ذلك فى حدود الشريعة ، ويطلق طاقات الناس العقلية فيما هي صالحة له من كشف أسرار الكون وتسخير نواميسه وطاقاته وعناصره لخير النـاس وصالحهـم • بل هو يدعوهـم إلى ذلك • ويدعوهم معه لما هو خير منه ، وهو التدبر والتأمل فيما وراء ذلك كله من الدلالة على عظمة الخالق فى كل صفاته الحسنى ، حتى تسكن النفس وتطمئن فى انقيادها لمشيئته ونواميسه • ولكنها تجمع الناس فى سلوكهم الفردى والجماعي على ما أمرت به الشريعة وما نهت عنه ، ولا تسمح بالخلاف أو الابتداع فى ذلك • فتحمي المجتمع الإسلامى مما يتعرض له من خطأ التقدير وفساد التدبير فى التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ، مما بَيَّنّا أن الملكاتِ البشريةَ فى إمكانها المحدود غيرُ صالحة له • وتحمى المجتمع الإسلامى كذلك من التفكك والتفسخ الذى تتعرض له المجتمعات اللبرالية نتيجة للخلاف والنزاع حول العقائد والمبادىء ، والتضـاربِ فى سلـوك المختلفـين عليها •

ذلك هو الإسلام فى تميزه وتفرده ورَبَّانيته (وأنَّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه • ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بكم عن سبيله • ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقـون ـ الأنعـام ١٥٣) •





موجة من الإلحاد ثم عودة إلى الإسلام

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كانت أزمة العصر التى تناولت الولاء السياسى ونُظُمَ الحكم تمتد لتغطى كل نواحى الفكر والمجتمع والثقافة. وكان فى مقدمة ما امتدت اليه فاهتز يقين الناس به - وشبابهم على وجه الخصوص - حقيقةُ الدين ، حتى أصبح الإلحاد سِمَةً من سِمات التفلسف وعمق التفكير ، يُبَاهى به أصحابُه ولا يتستّرون ، ويتظاهر به الذين لا يتصفون به كأنهم يفاخرون • وأصبح التدين مقرونا ببُدائية التفكير وبلادة العقل ، يستخفى به ضعاف الإيمان فلا يظهرونه حتى لا يوصموا بالتخلف والرجعية والخَرَف • وفى ظل هذه الموجة المخرِّبة نُشرت مقالات جريئة فى الصحف بعد الحرب العالمية الأولى لا يخفى أصحابها استخفافهم بالدين ، وظهرت كتب هزت المجتمع بجرأتها عليه ، مِثْلُ كتاب (الشعر الجاهلى) لطه حسين ، الذى استفز مشاعر المسلمين ، حتى طالبوا بفصل مؤلفه من الجامعة ومحاكمته • ثم وقف الأمر عند الاكتفاء بمصادرة الكتاب وجمع نسخه من الأسواق ، بمساندة الحزب السياسى الذى كان المؤلف ينتمى إليه ، والذى كان يشغل أحد أعضائه البارزين وقتذاك منصِبَ مدير الجامعة •

يقول طه حسين فى أول كتابه ذاك ، واصفا أنصار الجديد الذين اختار مذهبهم وفضّله على مذهب أنصار القديم من المحافظين : « فقد خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا » • ويقرر أن أصحاب الجديد « قد ينتهون إلى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ • وقد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » • وكلٌّ ذلك عنده تطبيقٌ لمذهب ديكارت الذى فُتِن به ،

على سوء فهمه له ، كما بيّنه محمد أحمد الغمراوى فى كتابه (النقد التحليلى لكتاب « فى الأدب الجاهلى ») • وتطبيق هذا المذهب كما توهمه هو أن نتجرد من شخصيتنا ومن كل مواريثنا الفكرية والعَقَدِيَّة حين نبحث • وفى ذلك يقول ما نصه : « فلنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غيرَ حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الاسلام أو النعى عليه ، ولا مَعْنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والأدبى ، ولا وَجِلين حين ينتهى بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية ، أو تنفر منه الأهواء السياسية ، أو تكرهه العاطفة الدينية • فإذا نحن حرَّرنا أنفسنا إلى هذا الحد فليس من شك فى أننا سنصل ببحثنا العلمى إلى نتائج لم يصل إلى مثلها القدماء » • ومع مَدِّ هذه الموجة العاتية صدر كتاب على عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، الذى حوكم بسببه أمام هيئة من كبار علماء الازهر ، فأصدرت حكمها بإخراجه من زمرة علماء الأزهر • وترتب على الحُكم عزله من وظيفة القضاء الشرعى التى كان يليها • أنكر على عبدالرازق فى كتابه أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحُكْم ومراكز الدولة جميعا من الدين فى شىء ، ووصفها بأنها « خطط دنيوية صرفة لا شأن للدين بها • فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمَر بها ولا نهى عنها • وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة » • وشَنَّع عَلى عبدالرازق فى كتابه بالخلافة والخلفاء على امتداد التاريخ ، معتمدا فى أكثر ما نقل على المستشرقين ، الذين يُكثِر من الإشارة إليهم على سبيل المباهاة ، مع توافر المصادر العربية الأصيلة ، التى لم يستنبط المستشرقون ما استنبطوه مما ساقتهم إليه الأهواء إلا منها ، بعد أن حرّفوا منها ما حرّفوا ، وبتروا منها ما بتروا ، وأسقطوا ما أسقطوا ، وأوّلوا ما أوّلوا • فهو يصف كل الزعامات التى وجدت فى ظل الإسلام ، ومن بينها خلافة الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، بأنها زعامة لا دينية • فهى عنده « ليست أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية » • فبيعة أبى بكر فى زعمه « بيعة سياسية عليها كل طابع الدولة المحدَثة ، قامت كما تقوم كل الحكومات

على أساس القوة والسيف » • بل هو يقرر أن حركة الرِدَّة كانت حركة سياسية لا شأن لها بالدين • ويذهب فى غُلوَائه إلى حد العطف على هؤلاء الذين قتلتهم السياسة ، حسب زعمه ، باسم الدين ، حين يقول : « كم نشعر بظُلمة التاريخ وظلمه كلما حاولنا أن نبحث جيدا فيما رواه التاريخ عن هؤلاء الذين خرجوا على أبى بكر فلُقِّبوا بالمرتدين ، وعن حروبهم تلك ، التى سموها حروب الرِّدَّة » •

ولنلاحظ بعد هذا أن الكاتبين كليهما ـ طه حسين وعلى عبدالرازق ـ اللذين صدر عنهما الكتابان فى عامين متتاليين (١٩٢٥ م ، ١٩٢٦ م) وهما أبرز ما أثار الرأى العام فى العشرينيات من هذا القرن الميلادى ، قد تلقيا دراستهما فى أكبر معهد إسلامى وهو الأزهر ، وأنهما ينتميان الى حزب سياسى واحد ، وهو حزب (الأحرار الدستوريين) • وواضح من اسم الحزب أنه يتعقب أثر أحزاب الأحرار أو اللبراليين فى أوربا • وقد كان حزبهم من الأحزاب البارزة فى إنجلترا وقتذاك • ورئيس الحزب المصرى ومؤسسة (محمد محمود باشا) ، تلقى دراسته العليا وتخرج فى جامعة أكسفورد •

ثم إن هذه الموجة التى تتباهى بالكفر والإلحاد ، وتراه مظهرا لحرية الفكر واستقلاله بالبحث بعيدا عن كل المؤثّرات مهما كانت صفتها أو قداستها ، لم تلبث ان ضعفت ثم انحسرت فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن الميلادى تحت تأثير ظروف سياسية واجتماعية ، أبرزها : جرأة البعثات التبشيرية المسيحية على اقتحام أحياء المسلمين ، حتى لقد بلغ من جرأة أحد هؤلاء المبشرين (وهو زويمر) أن دخل الأزهر يوما ليوزع نشراته التى تفيض بالطعن على الإسلام • ومن هذه الظروف السياسية ظهور خطر الحركة الصهيونية ، وتوالى الصدام بين المسلمين واليهود فى فلسطين منذ سنة ١٩٢٩ م ، وفظائع الاستعمارَيْن الفرنسى والإيطالى فى سوريا وفى شمال إفريقية ، باستشهاد عشرة آلاف شهيد فى مقاومة سوريا للاحتلال الفرنسى سنة ١٩٢٥ م ، وبمشروع الظهير البربري الذى حاول بعث القومية البربرية والتفريق بين العنصرين

البربري والعربي فى مراكش ، وبإعدام البطل الشهيد عمر المختار فى ليبيا سنة ١٩٣١ م الذى كان يقود الجهاد وهو فى السبعين من عمره ٠

وفى أحداث سوريا يقول شوقى :

قم ناج (جِلّق)٠وانشُد رسم من بانوا ... مشت على الرسم أحداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كِفاءَ له ... رثُّ الصحائف باقٍ منه عنوان
الدين والوحي والأخلاق طائفة ... منه وسائره دنيا وبهتان
بنو أمية للأبناء ما فتحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دَانُوا
كانوا ملوكا سريرُ الشرق تحتهم ... فهل سألتَ سرير الغرب : ما كانوا ؟
مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل فى المصَلىَّ أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرارٌ وعِبْدان
فلا الأذان أذانٌ فى منارته ... إذا تعالىَ ولا الآذان آذان

وفى استشهاد عمر المختار يقول :

ركزوا رفاتك فى الرمال لواءا ... يستنهض الوادى صباحَ مساءا
يا ويحهم نصبوا منارا من دم ... يوحِى إلى جيل الغد البغضاءا
تلك الصحارى غمد كل مهنَّد ... أبلى فأحسن فى العدو بلاءا
وقبورُ موتَى من شباب أُميةٍ ... وكهولهم لم يبرحوا أحياءا
يا أيها الشعب القريب أسامعٌ ... فأصوغَ فى (عمر) الشهيد رثاءا
أم ألجمَتْ فاك الخطوبُ وحَرَّمت ... شفتيك حين تخاطَب الإصغاءا
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالد ... فانقُدْ رجالَكَ واختر الزعماءا
وأرِحْ شيوخك من تكاليف الوغى ... واحملْ على فتيانك الأعباءا

فى ظل هذه الأحداث ظهرت جماعات إسلامية استطاعت ان تستقطب عددا كبيرا من الشباب أبرزها جماعة الإخوان المسلمين ٠ وفى ظل هذا التحول الجديد انعكس اتجاه التيار ، وأصبح الفكر الإسلامى والحماس الإسلامى وإحياء أمجاد المسلمين

والدعوةُ إلى الإعداد للجهاد فى سبيل استردادها بِدْعَ العصر • واستخفى الملاحدة الذين كانوا يدعون للإلحاد • عاد بعضهم عن انحرافه واعترف به وأعلن توبته ، كما فعل محمد حسين هيكل فى صَدْر كتابه (فى منزل الوحي) ، الذى كتبه بعد أداء فريضة الحج • ثم تتابعت كتبه الإسلامية • وسايَرَ بعضهم الموجة الجديدة ، فأصدر كتبا فى سير خلفاء المسلمين وأبطالهم كالعقاد • ونافق بعضهم هذه الحركة الجديدة كما فعل طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) الذى صدر سنة ١٩٣٣ م ، والذى قال في مقدمته :

« وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم مُحْدَثون يُكبِرون العقل ، ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه • وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يُسِيغها العقل ولا يرضاها .. وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شىء ، وأن للناس ملكاتٍ أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضى من العقل • وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا هى لم يطمئن إليها العقل ، ولم يَرْضَها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فإن فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم ومَيْلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، مما يُحبِّب إليهم هذه الأخبارَ ويُرغِّبهم فيها ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تَشُقُّ عليهم الحياة • وفرقٌ كبير بين من يتحدث بهذه الأخبار على أنها حقائق يُقرّها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، مُعِينة على إنفاق الوقت ، واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش » •

والسلام عليكم ورحمة الله •

١٥

الدين والمكتشفات العلمية الحديثة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كان اهتزاز اليقين فى هذا الجيل أثرا من آثار الافتتان بالبحث التجريبى والانبهار بالآفاق الجديدة التى فتحها هذا المنهج العلمي ولا يزال ، مما كان فى عداد الأحلام • وترتب على ذلك دعوةٌ تدعو الناس إلى رفض كل ما لا تثبته التجربة ، واعتبارِ كل العقائد الدينية التى تتصل بما غاب عن حواسنا أوهاما تعوق مسيرة البشرية فى الانطلاق إلى المعرفة • وبلغ هذا التيار الذى ينكر الإيمان بالغيب والتسليم بحدود الله ـ وهما أساس التدين ـ مداه حين ملأ الغرور بعض الناس فى السنوات الأخيرة ، بعد أن طافوا بمراكب الفضاء حول الأرض ، وبعد أن بلغوا بها القمر ، وطمحوا إلى بلوغ كواكب أبعد غورا فى أعماق الفضاء • وتزعزع إيمان بعض الضعاف وزاغت قلوبهم وطاشت عقولهم ، بين منكر للتجربة الواقعة وبين منكر للدين • ولو فكّر هؤلاء وهؤلاء وتدبروا ما بين أيديهم لكان لهم فيما شاهدوا ويشاهدون عِبَرٌ وعظات ، ولازدادوا به إيمانا • فقصار النظر ممن تبطرهم النعمة وتطيش عقولهم بالقليل من المعرفة هم وحدهم الذين يضلون • أما المتثبتون من المهتدين فهم يعرفون أن ميدان هذا الأسلوب التجريبى يختلف عن ميدان الدين ، لأنه محدود بالحدود التى تحد المعرفة البشرية ، وهى كثيرة • هى محدودة بحكم طاقة الحواس التى نستمد منها المعرفة • وعجزُ الحواسّ البشرية شىء مقرر تؤيده الدراسات التجريبية نفسها • فالعين البشرية مثلا ينحصر مدى إدراكها فيما بين الموجات الضوئية التى طولها ٧٠٠٠٠, والموجات الضوئية التى طولها ٤٠٠٠٠, من السنتيمتر ، وهى الموجات المحصورة بين اللون الأحمر واللون البنفسجي • وهى لا تدرك بعد ذلك شيئا مما فوق البنفسجي ومما

تحت الأحمر • ومثلُ ذلك ثابت معروف بالتجربة فى حاسة السمع وفى سائر الحواس • فالدين حين يتحدث عن مخلوقات ترانا من حيث لا نراها كالملائكة والجنّ يتحدث عن أشياء آمن بها المؤمنون قبل أن تكشف التجربة العلمية عن إمكان وجودها • ثم إن الأسلوب التجريبى والمعرفة البشرية كلها محدودة بالحيّز الزماني الضئيل الذى نعيش فيه وندركه ، لا نعرف ما قبله ولا نعرف ما بعده • وهى محدودة بالحيّز المكاني التافه الذى نحيط به ، لا نعرف ما وراءه من آفاق الفضاء ، بل فى أعماق الأرض والبحار ، إلا حَدْساً ورجماً بالغيب • وبعضُ ما يستنتجونه فى حَدْسهم أدعى للحيرة من الجهل به • فهم يقدّرون أن بعض النجوم ـ أركتورس مثلاً ـ تبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية • والسنة الضوئية كما هو معروف هى المسافة التى يحتاج الضوء ـ على سرعته اللماحة الخاطفة ـ لكي يقطعها إلى سنة كاملة • ومعنى هذا أن ذلك النجم الذى نراه الآن لا نراه كما هو الآن ، ولكنا نراه كما كان منذ ثلاثين سنة • لأن الشعاع الضوئى الذى يصل إلى أبصارنا الآن هو الذى انبعث منه منذ ثلاثين سنة • ومعنى ذلك أن من الجائز أن يكون هذا النجم الذى نراه الآن ، غيرَ موجود الآن فى حقيقة الأمر • ويقدِّر الفلكيون أن بعض المجرّات تبعد عنا ملايين من السنين الضوئية ومئات الملايين • أليس هذا العلم أدعى إلى الحيرة من الجهل وأدنى أن يكون تعبيرا عن عجزنا وقصورنا وضآلة شأننا ؟ ثم ، أليس يدل هذا ومثلُه ـ وهو كثير فى الدراسات الفلكية بخاصة ـ على ضآلة مدى الدراسات التجريبية من ناحية ، وعلى صعوبة إدراك حقائق الأشياء الأصيلة من ناحية أخرى ، وعلى أن المنهج التجريبى إن استطاع أن يوصّلنا إلى تسخير بعض الظواهر والطاقات وتطويعها لمصلحتنا ، فهو لا يوصلنا إلى حقائق هذه الظواهر والطاقات ؟

أنا لست عالِمَ فلك • ولكنى أنقل ما أنقله عن متخصصَيْن فى هذا الميدان : هما الدكتور احمد زكى ولنكولن بارنت فى كتابيهما (مع الله فى السماء) و (العالم واينشتين) •

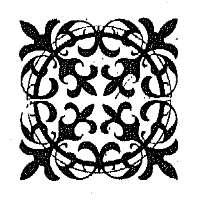
المتثبتون من المؤمنين يدركون من ذلك كله المعنى الكامل الحقيقى لقول الله تبارك وتعالى (وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا) ، ويزدادون يقيناً بما ظهر وبما لا يزال مستورا مما عسى أن تكشف عنه التجربة • ويستيقنون بذلك كله ضآلة شأنهم وشأن أرضهم كلها ، وسعةَ مُلْك الله الذى لا تبلغ الأرض والقمر والمجموعة الشمسية بأسْرِها فيه شيئا • ويدركون به عجزهم وقصورهم وغرورهم ، فى عبثهم العابث ، إذ بلغوا القمر قبل أن يكتشفوا أعماق الأرض والبحار تحت أقدامهم • وتطاولوا إلى السماء قبل أن يكتشفوا علاجا يردّ أذى أضعف خلق الله ، من جراثيم الأمراض التى لا تدركها العيون المجردة فى أجسامهم كالأنفلونزا والزكام • ثم هم يوقنون أن الله سبحانه وتعالى قاهرٌ فوق عباده ، قهرهم بالمرض وبالموت وبما يُفجَئون به مما تضيق به حيلتهم وتقصرُ عن دفعه طاقاتهم ، كالعواصف والزلازل والبراكين والأوبئة • وأنه لا مفرّ منه ولا مَهْرَب ، إليه يُرْجَعون طائعين أو كارهين •

بل إن العجز والقصور يتجاوز حدود العلوم التجريبية إلى العلوم النظرية التى تعتمد على الفكر المجرد • ومن أظهر الأمثلة على ذلك أن القسمة فى منطق العقل البشرى لا تقبل إلا أن يكون العالَم محدودا أو غيرَ محدود • ولا يستطيع العقل أن يتصور وجود قسم ثالث يخرج عن هذين القسمين ، ثم هو لا يستطيع فى الوقت نفسه أن يتصور أيًا من القسمين ، زماناً أو مكاناً • ذلك لأنه لا يستطيع أن يتصور حدودا للعالَم ـ بدْءاً أو نهايةً ـ ليس وراءها شىءٌ على الإطلاق ، ولو كان هذا الشىء فراغا زمانيا أو مكانيا • ولا يستطيع أن يتصور شيئا لا حدود له ، ولا أولَ له ولا آخِر • ومن هذا المثل الصغير ـ وغيرُه كثير ـ يتبين عجز العقل البشري • وذلك هو قولُ الله تبارك وتعالى فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم (فارجع البصرَ هل ترى من فُطُور) والفَطْر الشق والصدْع ، والمقصود هل ترى من خَلَلٍ أو وهن (ثم ارْجع البصر كَرَّتَيْنْ ينقلِبْ إليك البصرُ خاسئا وهو حَسِير) وخسأ البصر (كقطع) وحَسَرَ البعير (كنصر) كَلَّ وأعيا • فنظرةُ الإنسان المتدبِّرة فى الكون ترشده أولَ الأمر إلى

وَحدَة نظامه ووحدانيةِ خالقه سبحانه وتعالى وبالِغ قدرته وحكمته • ولكنه إن حاول الذهاب فى التصور إلى أبعد أعماقه وصل إلى نقطة تقف عندها موجات فكره ويرتد عندها شعاع بصره عاجزا كَليلاً •

ذلك هو السبب فى وصف النُّبوّة بأنها رحمة للعالَمِين ، فى مثل قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم (وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالَمين) ، لأنه حين علم ضعف العقل وعجزه ـ وهو العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ، أرشد خَلْقَه الضعفاء فيما هو خارج عن حدود تفكيرهم إلى ما فيه خيرُهم ، وأمرهم بلزومه والانقياد له ـ سبحانه ـ فيه ، سواء أدركوا وجه المصلحة والخير فيه أم لم يدركوه •

على أنه ليس من مقتضى كلامنا هذا أن يلغى الانسان عقله ويهمله ، أو أن يترك نفسه كالريشة فى مَهبّ الرياح • بل مقتضاه أن لا يستعمل عقله فى غير ما هو صالحٌ له بطبيعته وبُحكْم فِطرته التى فطره الله عليها ، وأن لا يخرج به عن حدود طاقته ، فيكون كالذى يريد أن يسمع بعينه أو أن يُبصر بأذنه ، أو كالذى يريد أن يَشُمّ بأنفِه ، ما ليس فى طاقة أنف الإنسان أن تدركه ولكنّ أنف الكلب تدركه ، أو يريد أن يبصر فى الظلام ماليس فى طاقة العين البشرية أن تدركه ولكنَّ عين غيره من الحيوان تدركه •



١٦

الإلحاد والمنطق السليم

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ..

كانت بعض الصحف تذهب مذهبا خبيثا ماكرا فتقدم آراءاً غريبة شاذة ، لا تَعْرِض لها بتكذيب أو تصديق ، ولكنها تقدمها فى أسلوب يجذب كثيرا من الأغرار • فمن ذلك مَثَلاً مقالٌ نشرته إحدى المجلات (الهلال) سنة ١٩٣١ م عنوانه (العلم والإيمان ، وديَانة « الإنسانية » الجديدة) • يَروى فيه تحرير المجلة أن هذه الديانة الجديدة قد انتشرت فى أمريكا ، وأن أصحابها يقولون إن مسألة وجود الله أو عدمَ وجوده ليست من المسائل الجوهرية • لأنه إذا عمل الإنسان ما هو صالح فى هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه • سواءٌ أكان له روح خالدة أو لم تكن • وتقول المجلة بلسان صاحب هذه الديانة :

« لو أن جميع الناس يعتقدون كما اعتقدنا أن هذا هو الفردوس الوحيد الذى ليس بعده فردوس آخرَ لوجّهوا كل قواهم إلى تحسينه ليصبح فردوسا حقيقيا بكل معنى الكلمة • أمّا وهم يؤمنون بوجود فردوس آخر أفضل ، وأن الانسان نزيلٌ فانٍ على هذه الأرض ، فهم يحرِّضون كل واحد على احتقار الحياة ، وعلى تَصَورِها بأبشع صورها ، حتى تصبح جحيما لا يطاق » •

ومن ذلك قول سامى الجريدينى فى بعض مقالاته بمجلة (الهلال) :

« ميزة المدنية الغربية النظام والحرية • النظام المستمد من القانون أو من الشريعة ، والخضوعُ لهذا النظام أو لهذه الشريعة ، باعتبار أنها تمثل إرادة الهيئة الاجتماعية وضميرَها • باعتبار أن الخضوع لها مصلحة للفرد والجمعية • ويَفْقِد النظام

مزيته ، وتفقد الشريعة قيمتها ، إذا كان الخضوع لها على اعتبار أنها إرادة قوةٍ لا تُرَدّ ، أرضيةً كانت هذه القوة أو سماوية · فالشريعة ، وهى ما يعبّرون عنه بكلمة law أو Loi ليست مشيئة القَوِىّ ، بل محاولة الوصول إلى العدل · ولذا كان من أركان بنيانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير ، حتى تبلغ أسمى مطامح الإنسان الأدبية » ·

ثم يقول إن الحضارة الغربية كانت فى أول أمرها « مثلَ الحضارات الشرقية ، تقدِّس الشريعة على أنها إرادة واحدٍ قهّار ، لا على أنها عدل · وعلى أنها لا تتغير إلا بمشيئة السيد · وما مشيئته الا حاجةٌ فى نفسه إن كان أرضيا ، أو أحجيةٌ لا تُفسَّر إن كان سماويا » ·

ومثلُ هذا التفكير واضح السذاجة عند أدنى فِكْر ، وإن كان فى خطورته قادرا على خداع الأغرار · ذلك لأن الناس يكدّون بدافع من الطمع فى مكافأة مادية أو معنوية لقاءَ ما يبذلون من جهد · ثم إن الأمل فى هذه المكافأة أو فى هذه الثمرة المرجُوّة هو الذى يهوِّن عليهم مشقة الكدّ ومعاناة ما يلقون فيه من أهوال ، وما يصادفهم فى حياتهم الدنيا من مصائب وكوارث لا سلطان لهم عليها · والدين وحدَه هو الذى يقدّم الحافز والأمل · والقانون فى أسمى صور العدل ، إن كف الناسَ بعضَهم عن بعض ، عاجزٌ عن أن يكف عنهم غوائل المرض والشيخوخة والحوادث المفاجئة والكوارث الكونية · والقانون وحدَه ، مهما يُظنّ به العدل ، لا سلطان له على قلوب الناس الذين يتنافسون فى تقاتلهم على تحصيل أقصى ما يمكن تحصيله من أسباب المتع ، طالما أن هذه الدنيا هى المجال الوحيد لتحصيل ما يمكن تحصيله منها · ولا شىء بعد ذلك إلا الفناء والضياع ·

ولو لم يكن الدين حقيقة قائمة لوجب على الناس أن يوجدوه ، لأنه ضرورة اجتماعية لا تستقر الحياة ولا تطمئن إلا به · فهو ، كما يقول مصطفى صادق الرافعى « حقيقة الخُلُق الاجتماعى فى الأمّة · وهو الذى يجعل القلوب كلَّها طبقة واحدة على

اختلاف المظاهر الاجتماعية ، عاليةً ونازلةً وما بينهما • فهو بذلك الضمير القانوني للشعب • وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية • وفيه ، لا فى سواه ، معنى إنسانية القلب » •

« ولولا التدين بالشريعة لما استقامت الطاعة للقانون فى النفس • ولولا الطاعة النفسية للقوانين لما انتظمت أمّة • فليس عمل الدين إلا تحديدُ مكان الحىِّ فى فضائل الحياة ، وتعيينُ تَبِعته فى حقوقها وواجباتها ، وجعلُ ذلك كله نظاما مستقرا فيه لا يتغير ، ودفعُ الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل ، ودائما نحو الأكمل » •

« وكلُّ أمة ضعف الدين فيها اختلّت هندستها الاجتماعية وماج بعضُها فى بعض • فإن من دقيق الحكمة فى هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية فى هذه الأرض • وذلك لتنتظم الغاياتُ الأرضية فى الناس ، فلا يأكل بعضهم بعضا • فيغتني الغني وهو آمن ، ويفتقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثوابُ الأعلى فى أن يعود على الأسفل بالمبّرة ، وثواب الأسفل فى أن يصبر على ترك الأعلى فى منزلته • ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة ، التى لا يكبُر عليها الكبير ، ولا يَصغرُ عنها الصغير ، وهى : الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البِرّ والتقوى » •

إن غاية ما يطمح إليه الناس فيما يسنّون من قوانين وما يبتدعون من مذاهب هو أن يضمنوا لأنفسهم حياة أرضية أغنى ، ولا أقول أسعد • نعم ، أغنى بمتع الجسد من طعام وكساء وشهوات • وقد لا تكون أسعد • بل هى على التحقيق والتمحيص أشقى وأتعس ، لأن صاحبها لا يطمئن ولا يرضى ، ولأن الناس يفقدون فيها التواد والتراحم والتواصل ، وبها وحدها تهون مشاقّ الحياة • ويصبح الواحد منهم تفجأه الكارثة فلا يجد معزّيا ، وتغمره النعمة فلا يجد مهنّئا ، وتحيط به المتاعب فلا يجد مُنْجدا أو مُعينا • يعيش وحده حياة محدودةً بين ناسٍ (يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) • ثم ماذا ؟ يقول عالِمُهم : لا أدرى • وما هذا بعلم • إنه نفىٌ للعلم •

وعلى الذى لا يعلم أن يلتمس العلم عند من يعلم · ولا سبيل إلى العلم هنا إلا بالوحْى · والإعراض عنه مكابرة يَحْرِمِ المكابر نفسه فيها من الانتفاع بخيرٍ أُتيح له ومعرفةٍ سيقت إليه ·

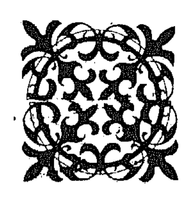
إن أحداً لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن هذه الحياة ليس وراءها إلا الفناءُ المطلَق · وغاية ما يبلغه الملحد أن يقول إنه لا يدرى ، أو أنه لا يعرف وجودا وراء هذا الوجود الأرضى ، أو حياةً وراء هذه الحياة الدنيا · وبعضُهم يقول : لماذا نفكر فيما وراء هذه الحياة ؟ ليكُنْ وراءها ما يكون · ولنحصرُ جهدنا فى إسعاد أنفسنا فى هذه الحياة · وليتهم يفعلون · فحتى هذا الهدفَ الدانيَ القريبَ لا يبلغونه · والدين أوضح من كل فلسفاتهم ومذاهبهم هدفا وأسلوبا فى بلوغه وتحقيقه ، بتزكية النفس ، والسمو بها على الواقع ، حتى تصبح مسيطرة على الجسد وشهواته ، والدنيا ومطامعها ، لا يقهَرُها شىء منها ولا يُذِلّها ولا يُشقيها ، لأنها تسمو على الأحزان ، ولا يعذّبها الحرمان ·

ومع ذلك فنحن نقول لهؤلاء الذين يرفضون التفكير فيما وراء الحياة : لماذا تُعلِّمون الناشىء من الصبيان أن يفكّر فى مستقبله ، وتنصحونه بالإعراض عما تدعوه إليه نفسه من اللعب واللهو والاستمتاع بدواعي الشباب ، ضمانا لمستقبلٍ أفضل ؟ وأنتم تعلمون أن هذا المستقبل الأفضل قصير محدود مهما طال ؟ ولماذا تكدّون فى شبابكم من أجل شيخوخة أفضل قد لا تبلغونها ؟ ولماذا تدخرون المال وتحرمون أنفسكم من الاستمتاع به احتياطا لمستقبلٍ قد لا يجىء ؟ ولماذا تصفون المُعرِض عن ذلك كله بالحماقة وقِصرَ النظر ؟ أليس الذى يبيع حاضرا راهنا محدودا بمستقبل مديد لا يَحُدّ امتدادَه الخيالُ أحمقَ منه وأقصرَ نظرا ؟ أرأيتَ الرجل الذى ضيّع صباه وشبابه ، حين يرى أقرانَه ممن أحسنوا إعداد أنفسهم فى الصبا والشباب ، فجنَوا ثمرةَ ذلك حياةً أنعم ومستقبلا أفضل ؟ فحسرةُ الذى ضيّع حياته الدنيا أكبرُ وأعظم ، حين يرى سواه ممن جدّ فيها وأحسن إعدادَ نفسه لما وراءها ·

ولماذا تخُطّط الدول للمستقبل البعيد ولا تقنع بالحاضر الراهن ؟ ولماذا تَحْرِم شعوبهَا وتدعوهم إلى أن يشِدّوا الأحزمة على البطون من أجل مستقبل أفضل ؟ مع ما قد يتعرّضون له من مفاجآتٍ تفسد تدبيرهم فى هذا المستقبل الذى يخطّطون له ؟ فالتخطيط للمستقبل الأبقى والأدوم أولىَ وأحرَى • والإعدادُ لما وراءَ هذه الحياة الدنيا من حياةٍ لا تتعرض للمفاجآت المخيِّبة للآمال أحقُّ بالعناية والتدبير •

من ذلك يبدو بوضوح أن الدعوة إلى إنكار الدين باطلةٌ من وجهَينْ :

أولهما هى أنها دعوة سلبّية لا برهان لصاحبها على صِحَّتها ، وثانيهما أنها تستند إلى منطق يناقض منطق دعاتها فى الحياة ، وفى تخطيطهم للمستقبل ، إلى أبعد ما يتخيلونه •





استحضار أرواح الموتى

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

بلغ من افتتان الغرب بالمنهج التجريبي فى المعرفة أنهم طمحوا إلى إخضاع عالَم الغيب للتجريب . وكان من أبرزما ظهر فى هذا الميدان إدخال عالم الروح فى ميدان التجريب . وابتدعوا لذلك علما سموه (الروحية) أوSpiritualism، نقلناه عنهم فيا نَقْمِشُ ونَحْطِب .

ودعوتهم هذه تنتحل اسم العلم ، وتزعم أنها تجرى التجارب على أرواح من ماتوا ، وتدّعى أن هذا هو سبيلها إلى ردّ الناس عن تيار المادية الطاغية . وهذا نفسه جميل ولا بأس به ، لولا أن باب الكذب والدجْل والخداع لا يتسع فى شىء مما ينتحل اسم العلم كما يتسع فى هذه الدعوى وتجاربها ، ولولا أن هذه الدعوة على ما يبدو من ظاهرها الجميل البراق ، الذى يدعو إلى الايمان بالله ، تريد أن تكون دينا جديدا يُعفى أتباعه من كل الصلوات والعبادات والشعائر ، ولا يجعل أهمية لغير العمل الصالح ، بحسب ما يفهمه دعاتُها ويزعمونه . فهم إذن ينتغون إلى الله الوسيلة بمناهج جديدة وبشعائر مستحدثة تخالف شعائر كل الأديان . وليس الدين إلا منهجا من المناهج يتوسل به العبد إلى ربه . فهم إذن أصحاب منهج جديد فى ربط العباد بربهم وخالقهم ، أى أنهم أصحاب دين جديد .

والدعوة بعد ذلك ليست حرباً على المادية كما يزعم أصحابها ، ولكنها إغراق فيها وإمعان فى التمسك بها ، لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوسات للمنهج التجريبي . ولكنها تتطاول إلى ما وراءها من عالم الغيب تريد أن تخضعه للتجربة وتنكر كلَّ ما لا يمكن ثبوته من هذا الطريق .

وأكثر من ينخدعون بهذه الدعوة هم الذين أصيبوا بصدمة عجزوا عن احتمالها ، من موت ابن أو زوج أو زوجة أو عزيز • ولذلك بدأ انتشار الدعوة فى أوربا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى • ودخل فيها عدد من العلماء منهم سير أو ليفَر لودْج، الذى فقد ابنه فى هذه الحرب • وانتقلت الدعوة إلى مصر عن طريق (أحمد فهمى أبو الخير) أستاذ العلوم الذى فقد ابنه الوحيد بعد أن حُرِم الإنجاب سنين طويلة • فترجم عددا من الكتب الإنجليزية المؤلفةِ فى هذا الموضوع ، كان أولها (على حافة العالم الأثيرى) (On the Edge of the Etheric) لمؤلفه آرثَرْ فِنْدلاى (J. Arther Findlay) ثم أنشأ أول دائرة عربية لتحضير الأرواح وأصدر باسمها مجلة شهرية سماها (عالم الروح) • وانتشرت الدعوة انتشارا واسعا بعد الحرب العالمية الثانية فى مصر ثم فى كثيرٍ من البلاد العربية والإسلامية •

ومن أكثر ما ينخدع به الناس الذين تستهويهم هذه الدعوة أمران : أولهما الأجهزة العلمية التى تملأ معامل تحضير الأرواح ، وثانيهما الأسماء الضخمة البارزة لعدد كبير من المشتغلين بالعلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية ، الذين انضموا للدعوة وشاركوا فى بحوثها •

أما الأجهزة العلمية فالثغرات التى تسمح بالغش والخداع فيها كثيرة • ولكنها تَخفَى على غير المدققين • وتعتمد فيها نتائج البحث اعتمادا كبيرا على شخص الوسيط • وهذا كلام مجمل شديد الإيجاز يحتاج إلى بيان • ولكن الوقت الذى يسمح به البرنامج لا يحتمل التفصيل الدقيق • لذلك أحيل من يطلب تفصيلا أدق وأطول إلى كتابي عن (الروحية الحديثة) •

أما عن العلماء الذين دخلوا فى الدعوة وأصدروا فيها كتبا أو سمحت لهم الجامعات بإجراء بعض التجارب فى معاملها فالأمر يحتاج إلى تجلية شبهة ينخدع بها كثير من الناس ، ويستغلها دعاة الروحية أوسع استغلال • فحقيقة الأمر فى الظواهر الكونية

التى اكتشفها الإنسان واستغلها حتى الآن والتى سوف يكتشفها ويستغلها من بعد ، أنها لا تعدو أن تكون معارف جزئية يفيد كل كشف منها معرفة حقيقة جزئية على حدة • ولكنها لا تفيد إدراك الكل الذى ينتج عن ربط ما بين الأجزاء والوحدات فى كل الميادين ، ما عُرِف منها وما لم يُعْرَف • ولذلك كانت براعة كل واحد من الباحثين فى هذه الفروع أو المكتشفين لبعض أسرارها محصورةً فى دائرة لا يتجاوزها ولا يتعداها من الميادين • وقد يكون بعد ذلك متوسط الخبرة أو ضعيفها فيما عداها من شئون • بل المعروف أن بين المشهورين من المشتغلين بالعلوم التجريبية كثيرا ممن تغلب عليهم الغفلة والسذاجة ، وتجوز عليهم الحيلة والخداع بأيسر سبيل ، لطول انطوائهم على أنفسهم وانكبابهم على الدائرة الضيقة التى حصروا فيها أنفسهم ، لا يحوّلون عنها انتباههم ، مما يعزلهم عن الناس ويُضعِف خبرتهم بالحياة ويجعل كل واحد منهم أقرب إلى الصانع الماهر منه إلى العالِم المحيط • ولكن الغرب المفتون بالمادة وبدراساتها التجريبية والمحتقر لما عداها هو الذى سماهم Scientists واشتق لهم هذا الاسم من الكلمة اللاتينية التى تدل على المعرفة وهى Sciens ، وجَرَيْنا نحن من بعدُ على هذه التسمية فترجمنا الاصطلاح إلى (علماء) • وقد زعم أحد المنتسبين إلى هذه الدعوى أنهم هم المقصودون بقوله تعالى (إنما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العُلَماء) • ومن الواضح أن هذه الدراسات والحِرَفَ التجريبية ليست هى العِلْمَ المقصود ، لأن بين المشتغلين بها كثيرا من الملاحدة والماديين ، ولأن أصحابها لا يبرءون من الأهواء • فليس هناك مايمنع من أن يضعوا أنفسهم فى خدمة إحدى الدعوات الهدامة ، ما داموا قد قبلوا ولا يزالون يقبلون ، أن يضعوا أنفسهم فى خدمة الوحوش والطغاة من صانعي الحروب والفتن ومستعبدي الشعوب ومزوِّري الحقائق ومروِّجي الأباطيل • فهم فى خدمة من يُغْدِق عليهم ، ثم يحبسهم على ما يريده وما يدبّره ، من وراء أبوابٍ مُغَلّقة ، يعملون فى داخلها كما تعمل دودة الحرير • وإنما العلم المقصود بقول الله تعالى هو علم الحق ، علم الذين يتقون الله فيهديهم سبلهم ويملأ أبصارهم

وبصائرهم بالنور . ولكن داعية الروحيين المسكين يريد أن يفسر القرآن العربي بمفاهيم أوربية ، بل بمفاهيم صهيونية .

وقد تشعبت هذه الدعوة أو الدعوى ، فأصبحت لها فروع متعددة ، وأصبح لوسطائها تخصصات معروفة . فمن فروعها فرع لعلاج الأمراض المستعصية ، يزعمون أن بعض المشتغلين بالطب من الموتى هم الذين يقومون عليه . ومن فروعها فرع لما يسمونه (الارشاد) تقوم فيه الروح المزعومة المسيطرة على الدائرة بتقديم المواعظ ، والإرشاد إلى ما يكون وما يجرى وراء الموت . وكل ما يقدمه هذا الفرع من الروحية من بيان يناقض الإسلام أشد المناقضة ، ويلتقى مع أهداف الصهيونية العالمية بأجهزتها المتعددة كالماسونية والتسلح الخلقى وشهود يهوه . فالإسلام عندهم ليس خاتم الرسالات . والوحي عندهم دائم لا ينقطع ، كان ولا يزال وسيبقى . والرسل والأنبياء وسطاء ، لا يزيدون عن الوسطاء الذين يستخدمونهم فى اجتماعاتهم لمناجاة الأرواح المزعومة . ولا يتسع الوقت لتقديم ما لدىّ من النصوص الصريحة التى تشهد بذلك وتثبته إثباتا قاطعا . ولكني أُجمل الكلام فأقول إن الروحية فى زعم أصحابها وبصريح أقوالهم « أقدَرُ من غيرها على تأسيس دين جديد واسعٍ للعالم كله ـ مجلة الروح العدد١٢٧) وهم يقدّمون ، كما يقول الدكتور على عبدالجليل راضى الأستاذ بكلية العلوم « طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته عالم الروح العدد ١٢٦ » . ويُعْفِى هذا الدين الجديد أتباعه من كل العبادات . وتنحصر طقوسه وفرائضه « فى تدريب الناس على تركيز القوة الروحية ـ عالم الروح العدد ١٢٧ » . ويقول محمد فريد وجدي فى سلسلة من المقالات نشرها فى مجلة (المقتطف) سنة ١٩٢٠ م ـ وصاحب المقتطف على ما هو معروف من كبار الماسون . ومحمد فريد وجدى معدود عند بعض الناس من أصحاب الاتجاه الإسلامى ـ يقول على لسان أحد الأرواح المزعومة التى يناجونها وتناجيهم فى اجتماعاتهم الروحية : « نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسَلُون من قبلنا .

غيرَ أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم • فإلهنا هو إلههم • إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقلُّ صفاتٍ بشريةً وأكثرُ صفاتٍ إلهية » •

وفى تعاليمهم خلط وخبط وتناقض كثير • فهم يمجدون الشيوعية فى الوقت الذي يدعون فيه إلى تنمية القوى الروحية• وهم يمجّدون الوثنيين من الفراعنة والهنود الحمر • وينسبون إليهم أكثر من يسمونهم (الأرواح الحارسة) فى جلساتهم • وهم يزعمون أن بعض أرواح الموتى تقوم بعلاج الضالين والمرضى من الأحياء ، وفى الوقت نفسه يزعمون أنهم يرشدون فى دوائرهم بعض الضالين من أرواح الذين فارقوا الحياة • وهم يقدّمون طائفة من المزاعم والأوهام يسودها الخلط عما وراء الموت ، تختلف باختلاف الدوائر التى تصدر عنها ، والأرواح المزعومة التى تُنسَب إليها • وتزعم بعض دوائرهم أن التواصل سيزداد بين الأحياء والأموات حتى يتم ويصبح عامًّا • وعند ذلك يتحقق السلام والسعادة • وذلك عندهم هو الجنَّة • وفى خلال ذلك تتطهر أرواح الكفار والمنحرفين والـمُذنبين من خلال ما يعانون من آلام التوبة والندم • وذلك عندهم هو كل العذاب ، الذى تقدم الأديان صورا رمزية منه فيما تسميه (جهنم) • وهم يزعمون أن باب التوبة لا يغلق بالموت ، وأن فرصته متاحة للمجرمين وللخطائين بعد الموت• وهم يهدمون الخلق بنفي الاختيار والقول بالجَبْر ، حين يزعمون أن كثيرا من المجرمين يرتكبون جرائمهم وهم مسلوبو الإرادة تحت سيطرة بعض الأرواح الشريرة •وذلك ما يسمونه (المسّ الروحى) • وأخطر ما فى الأمر أن المسلمين منهم يؤيدون ذلك كله بنصوص ملفقة من القرآن والحديث وسير الصالحين ، بعد تحريفها وإساءة تأويلها • ولذلك أرى أن أقدّم فى الحلقة القادمة من هذه الأحاديث صورة عن الحياة الأخرى مستمدة من آيات القرآن الكريم •

والسلام عليكم ورحمة الله •



الحياة الأخرى فى القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

سأحاول فى حديثى هذا أن أستنبط من كتاب الله صورة لما وراء الموت ، كما رسمها الإسلام من طريق الوحي المنزَّل على خاتم رسل الله ، محمد بن عبد الله ، من عند علام الغيوب ، الذى يَعْلَم ، ولا يَعْلَم مَنْ سِواه ، ماكان وما هو كائن وما سيكون • أستنبطُ هذه الصورة ، ليَعْرِض عليها الناسُ كلَّ مايَرِدُ عليهم من مزاعم المفسدين والمضلِّلين ، من الروحيين وغير الروحيين ، على اختلاف نِحَلهم وأهوائهم •

الأحياءُ والأمواتُ وكل من في السماوات والأرض من إنس وجن ينتظرون يوماً وصفه مالك الملك سبحانه بقوله : (ونُفِخ فى الصُّور فصَعِق مَنْ فى السمٰوات ومَنْ فى الأرض إلا من شاء الله ـ النحل ٨٧) • ذلك يومُ الآخرة ، الذى أنذر الله سبحانه وتعالى عِبادَهُ هَوْلَه فى مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، مثل : (ياأيها الناس اتقوا ربكم • إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم • يوم ترونها تَذْهَل كلُّ مُرضِعة عما أرضعَتْ • وتضع كلُّ ذات حَمْلٍ حَمْلَها • وترى الناسَ سُكارَى وماهم بسُكارَى ، ولكنَّ عذاب الله شديد ـ الحج ١) • يومئذ تندثر السماوات والأرض ، ويُطوَى الكون طيًّا ، أرضُه وسماؤه ، وكواكبه وأجرامه • وتفنى المادة فتعود إلى مِثْلِ ماكانت قبل خَلْق السماوات والأرض (ويسألونك عن الجبال ، فقل يَنْسِفُها ربى نسفا ، فيذرها قاعاً صَفْصَفاً ، لاترى فيها عِوَجاً ولا أمْتا ـ طه ١٠٦ و١٠٧) (فإذا نُفِخَ فى الصُّور نفخة واحدة ، وحُمِلت الأرض والجبال فدُكَّتا دَكَّةً واحدة ، فيومئذ وقَعَت الواقعة ، وانشقت السماءُ فهى يومئذ واهية • والمَلَكُ على أرجائها • ويَحْمِل عرش ربك فوقَهم يومئذٍ ثمانية ـ الحاقةَ ١٣ ـ ١٧) (إذا السماءُ انفطرت ، وإذا الكواكبُ انتثرت ، واذا البحارُ

فُجِرَتْ ، وإذا القبورُ بُعْثِرت ، عَلِمَتْ نفس ماقدّمَتْ وأخّرَتْ ـ الانفطار (١ ـ ٥) (يومَ نطوِى السماءَ كَطىِّ السِّجِلِّ للكُتُب • كما بدأنا أولَ خَلْقٍ نُعيده • وعْداً علينا إنَّا كنا فاعلين ـ الأنبياء ١٠٤)

ذلك يومٌ أخفى الله علمه عن خَلْقه ، لايعلمه الأحياء ولا الأموات ، ولا الجن ولا الإنس ، إلا ماشاء الله (يسألونك عن الساعة أيان مُرْساها • قل إنما عِلْمُها عند ربىِّ • لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو • ثقُلَتْ فى السموات والأرض • لا تأتيكم إلا بَغْتَةً • يسألونك كأنك حَفِىٌّ عنها • قل إنما عِلْمُها عند الله ، ولكنَّ أكثر الناس لايعلمون ـ الأعراف ١٨٧)

(بَلْ تأتيهم بغتةً فتبهَتُهم فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنْظَرُون ـ الأنبياء ٤٠) • ويَظل خَلْق الله بعد النفخة الأولى إلى ماشاء الله ، حتى يَبْعَثَهم من جديد يومَ القيامة • (ونُفِخ فى الصُّور فصَعِقَ من فى السموات والأرض إلا مَنْ شاء الله • ثم نُفِخَ فيه أُخرَى فإذا هم قِيامٌ يَنْظرون • وأشْرَقَت الأرضُ بنُور ربها • ووُضِع الكتَابُ • وجىءَ بالنَّبِيِّين والشُّهداءِ ، وقُضِى بينهم بالحق وهم لا يُظلَمون • ووُفِّيت كلُّ نفْسٍ ماعَمِلَتْ ، وهو أعلَمُ بما يفعلون ـ الزمر ٦٨ الى ٧٠) (ونُفِخ فى الصُّور فإذا هم من الأجْدَاث إلى ربهم يَنْسِلُون • قالوا ياويلنا • مَنْ بعثنا من مَرْقَدِنا • هذا ماوَعَد الرحمنُ وصَدَقَ المرسَلون ـ يسن ٥١ ، ٥٢) (إنَّ يومَ الفَصْل كان ميقاتا • يومَ يُنفَخُ فى الصُّور فتأتونَ أفواجا • وفُتِحت السماءُ فكانت أبوابا • وسُيِّرَت الجبال فكانت سرَابا ـ النبأ ١٧ إلى ١٩) • ذلك يومُ الحساب (يوم تُبَدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ وبَرَزُوا لله الواحد القهّار • وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنين فى الأصْفاد ، سرَابيلُهم من قَطِرانٍ وتَغْشى وُجوهَهُم النار • ليَجْزِىَ اللهُ كلَّ نفسٍ ماكسَبَتْ • إن الله سريعُ الحساب ـ إبراهيم ٤٨ إلى ٥٠) •

والله سبحانه وتعالى وحدَه هو الذى يعلم كم ينقضي من الزمان بين النفختين • فذلك حينٌ من الدهر يفنى فيه الزمان بالنسبة لخَلْق الله (ويومَ تقوم الساعةُ يُقْسِم

المجرمون مالَبِثوا غيرَ ساعة • كذلك كانوا يُؤفَكون • وقال الذين أُوتوا العِلْمَ والإيمانَ لقد لبِثْتمُ فى كتاب الله إلى يوم البَعْث • فهذا يومُ البَعْث • ولكنّكم كنتم لا تعلمون ـ الروم ٥٥ ، ٥٦) (يومَ يدعوكم فتستجيبون بِحَمْدِه وتظنون إنْ لَبِثْتم إلا قليلا ـ الإسراء ٥٢) (كأنهم يومَ يَرَوْن مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار ـ الأحقاف ٣٥) (يومَ يُنفَخ فى الصُّور ونحشرُ المجرمين يومئذٍ زُرْقاً يتخافتون بينهم إنْ لَبِثْتم إلا عَشرْا • نحن أعلَمُ بما يقولون ، إذ يقول أمثَلُهم طريقةً إنْ لبثتم إلا يوما ـ طه ١٠٣ ، ١٠٤) •

ذلك كله واقع لامحالة (الله لا إلٰه إلا هو لَيَجْمعنَّكم إلى يوم القيامة لارَيْبَ فيه • ومَنْ أصدَقُ من الله حديثا ـ النساء ٨٧) فمن جحده وشك فيه ، اعتماداً على مَزاعم إخوان الشياطين ممّن يسمون أنفسهم الروحيين وتأوُّلاتهم فأولئك هم الخاسرون (وما يُدريكَ لعلَّ الساعة قريب • يَسْتَعجِل بها الذين لايؤمنون بها • والذين آمنوا مُشفِقون منها ويَعْلَمون أنها الحق • ألاَ إنّ الذين يُمارُون فى الساعة لَفِي ضَلالٍ بعيد • الشورى ١٧ ، ١٨) •

يومئذ يَعض الذين يعارضون علم الله بنجوى شرار خلقه وجهالهم من الجن البنان ، ويعرفُون أن شركاءهم وأصحاب نجواهم قد غرّروا بهم حين أمْلَوا عليهم ما أمْلَوا ، مما رَكَنوا إلى تصديقه ، ثم نصبوا أنفسهم أعوانا للكفر والضلال ينشرون قالته بين الناس • (ويومَ يحشرهم جميعا • يامعشرَ الجن قد استكثرتم من الإنْس • وقال أولياؤهم من الإنْس ربَّنا استمتَع بعضُنا ببعضٍ وبلَغْنا أجَلَنا الذى أجَّلْتَ لنا • قال النارُ مَثْواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله • إن ربك حكيم عليم ـ الأنعام ١٢٨) • (وكذلك جعلنا لكل نبِيٍّ عدُوّاً شياطين الإنْسِ والجِنّ يوحي بعضُهم إلى بعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرورا • ولو شاء ربُّك مافعلوه • فذَرْهُم وما يفترون • ولتَصغَى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضَوْه ، وليقترفوا ما هم مقترفون ـ الأنعام ١١٢ ، ١١٣) •

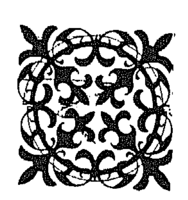
ولا ينبغى أن يغيب عن بال الناس أن إطلاق الاتصال بالموتى وجعْلَه فى متناوَل كلِّ انسان ، والاستعانةَ بهم فى علاج مرضانا وفى شئون دنيانا المختلفة ، إفسادٌ للحياة التى يقوم بعض عمرانها على التنافس واستباق الخيرات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائبة المتكررة فى سبيل التفوق وفى التغلب على الصعاب والانتصار على مصادر التعب والقلق ، ومن بينها المرض • وهو كذلك ، إبطال للحكمة فى خَلْق الموت والحياة ، وما قدّر الله سبحانه وتعالى وقضى من إقامة الحجاب بينهما لحكمةٍ يَعْلمها ، تنتظم بها حياتنا فى الدنيا وفى الآخرة •

ولا ينبغى أن يغيب عن بال الناس كذلك أن فى عالَم الخَفَاء شرِّيرين ومفسدين ، وكفارا وضالين (وأنّا منّا الصالحون ومِنّا دون ذلك كُنّا طرائقَ قِدَدًا ـ الجن ١١) ، وأن معرفة الأحياء والأموات والإنس والجن محدودة بحدود الزمان والمكان الذى لا يحيطون به ، فالله سبحانه وتعالى هو وحدَه الذى أحاط بكل شيء عِلْما وأحصَى كلَّ شيءٍ عَدَدا • فمن استنجد بهم واستمدهم وعاذ بهم فقد أرهق نفسه وغامر بها فى المهالك وعرّضها للشرِّ كله (وأنه كان رجال من الإنْسِ يعوذون برجالٍ من الجِنّ فزادوهم رَهَقًا ـ الجن ٦) ومن عاذ بالله وتوكل عليه فهو حَسْبُه سبحانه وتعالى (ومن يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُه) ولا سلطان لشرار خَلْق الله من الجن والشياطين عليه (إنّ عِبادى ليس لك عليهم سُلطانٌ إلا من اتَّبَعَكَ من الغاوين ـ الحجر ٤٢) (إنَه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون • إنما سلطانُه على الذين يتولّونه والذين هم به مُشرِكون ـ النحل ٩٩ ، ١٠٠) (إنّ الذين اتَّقوا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تذكَّرُوا فإذا هم مُبْصرِون ـ الأعراف ٢٠٠)

وقد أكمل الله سبحانه وتعالى للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته • فمن غامر بنفسه بعد ذلك فى تلك المجازفات التى تعرّض صاحبها للهلاك والبوار فقد حملها على طريق اليهود الذين أنزل الله تعالى على نبيّه فى وصفهم (ولمّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدِّقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراءَ ظهورهم كأنهم

لا يعلمون ، واتَّبعوا ما تَتْلو الشياطين على مُلْك سليمان • وما كَفَر سليمان • ولـكنّ الشياطين كفروا • يُعلِّمون الناس السِّحْرَ وما أنزل على الملَكَيْـن ببابـلَ هارُوتَ ومارُوت • وما يُعلِّمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر• فيتعلمون منهما ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه • وما هُمْ بضارين به من أحَدٍ إلا باذن الله • ويتعلمون ما يضرُهم ولا ينفعهم • ولقد عَلِموا لـمَن اشتراه ماله فى الآخرة من خَلاق • ولَبِئْسَ ماشَرَوا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون ـ البقرة ١٠١ ، ١٠٢)

وقد أغنى الله المسلمين عن التماس الهدى والخير فى هذه المجازفات • فأنـزل عليهم كتابا لا يضلون إن تدبَّروه واتبعوه • فمن أعرض عنه والتمس الهداية والرشاد فى سواه ضل وكان الشيطان له قرينا وساء قرينا ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذِكْرُكم • أفلا تعقلون ـ الأنبياء ١٠) ويقول سبحانه وتعالى (ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا فهو له قَرِينُ ـ الزخرف ٣٦) ويقول جلَّ وعلا (ومن أعرَضَ عن ذِكري فان له معيشةً ضَنْكا ، ونحشرُه يومَ القيامـة أعمى • قال رَبِّ لِمَ حشرتنى أعمَى وقد كنتُ بصيرا • قال كذلك أتتكَ آياتُنـا فنَسيتَها ، وكذلك اليومَ تُنْسى ـ طه ١٢٤ الى ١٢٦) •





القرآن والمكتشفات العلمية الحديثة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

فُتِن المسلمون بنتائج البحوث التجريبية التى برع فيها الغرب فى العصر الحديث وسَبَقَ المسلمين • وجرَّهم ذلك إلى الافتتان بكل مايصدر عن الغرب من علم أو فكر • وظهر ردُّ الفعل لهذا الافتتان فى أسلوب بعض الدعاة الذين أخذوا يرُدُّون الناس إلى ساحة الدين باستخراج دَلالات كونية توافق كُشوف العلوم التجريبية الحديثة عند الغرب من القرآن والحديث • وأسرف بعضهم فى هذا الاتجاه ، حتى أصبح فى جَرْيه وراء أى شُبهةٍ فى النص تخدم غرضه كالذى يبحث عن إبرةٍ فى أكوام من التِّبْن • وأصبح كلامهم فى كثير من الأحيان مَثار تندُّرٍ عند القراء • بل أصبح يزيد افتتان الناس بالحضارة الغربية ، يغريهم بها ولا يَصدُّهم عنها ، لأنه كان يَعْنِى عند الناس أن هذه الحضارة أصبحت هى المقياس الذى تُقاسُ به صِحَّة الأشياء وفسادُها ، وأن النصوص الإسلامية من قرآن أو حديث لاتصحُّ إلا لأنها توافق ماجاءت به هذه الحضارة • ولم يكن كلُّ ما جاءت به هذه الحضارة حقائقَ علمية ثابتة • كان بعضُه حقائقَ علمية • وكان كثير منه فروضا ونظريات تقبل التغيير والتبديل وتخضع للتطور وتنتظر المَزيد من البيان •

لذلك كان بعض مايقدّمه أصحاب هذا المذهب من المسلمين فى هذا الباب مقبولا نافعا ، وكان بعضه مرفوضا فاسدا يُسرِف على نفسه وعلى الناس ،ويركب الشَّطَط فى تأويل المعجزات وكلٍّ مايتصل بعالَم الغيب • فيقول مَثَلاً إن المقصود بالشيطان هو العقل الباطن ، وأن الجنة والنار حالات عقلية نفسية ، يَنعَمُ بها الصالحون ويَشْقَى بها المفسدون ، وأن الإسراء والمعراج انتقال عقلى أو روحى كالذى يحدث فى الأحلام وفى

معامل الروحيين ممن يزعمون الاتصال بالأموات • وأن قَصَص القرآن وما جاء فيه من مثل خلق الدنيا وخلق آدم وخروجه من الجنّة ليس إلا تمثيلا ، وأن المقصود بإمداد الله رسولَه ﷺ فى قوله تعالى (وأنزَلَ جنودا لم تَرَوْها) هو قوة الروح المعنوية • وأن المقصود بـ (طيراً أبابيل) فى سورة الفيل هو الجراثيم • ومن الواضح أن الذى ينكر المعجزة لغرابتها وشذوذها عن المألوف خليق أن ينكر الوحي نفسه ، لأنه أمعَنُ فى الغرابة وفى الشذوذ عن المألوف • والذى يعتقد حقًّا أن النبى ﷺ يَنْزِل عليه جبريلُ مرسلا من عند الله سبحانه وتعالى ، كيف يَكبرُ عليه أن يسلِّم بما يُـجْرى الله على يديه من غرائب ، وما يحفه به من أسباب الرعاية التى تخالف مألوف العادة ؟ ويقولون إن قوانين الطبيعة ونواميس الله فى خَلْقه لاتُـخْرَق ولا تتبدل • وذلك صحيح • ولكنّ من هذه القوانين والنواميس ما لا يزال سرًّا محجوبا عنا • وما يبدو فى المعجزات خَرْقاً للنواميس ، هو فى حقيقة أمره خَرْقٌ لمألوف العادة ، بنواميسَ حَجبَ اللهُ علـمَها عن خَلْقه وذلَّلَها وسخرها لأنبيائه ورسله • ولو تدبر الناس الكُشوف الإلكترونية الحديثة فى نقل الأصوات والصور وإجراء الحسابات الدقيقة والتحكُّم مِنْ بعيدٍ فى حركات الأجسام السابحة فى الفضاء ، مما أُتيح لأهل عصرنا من مفـاتيح هذه الأسرار ، لعرف أن فى النواميس من الأسرار مالا يُحْصِى علمَه إلا الله • وأن المعجزة الحقيقية ليست فى اكتشاف مفاتيح هذه الأسرار • ولكنها فى ضخامة ماخَفِيَ منهـا ، وفى عجائب ماأودع الله فى الإنسان من قدرات وطاقات عقلية ، فى هذه الكتلة الشحمية التى نسميها (المخ) ، التى تذهب فى الكشف والابداع إلى ذلك المدى البعيد ، ثم تصير فجأةً أسرعَ شيءٍ تعفُناً وفساداً وانحلالاً بمجرد أن يفارقها السرُّ الالهى الذى نسميه الروح •

كان مِنْ أسبق من اتخذ هذا الأسلوب الذى يستغِلّ الكشوف الحديثة فى التفسير من المسلمين المعاصرين طنطاوى جوهرى ، وتبعه فى ذلك كثير من المسلمين • ألَّف طنطاوى جوهرى جملة من الكتب الصغيرة خلال حياته ، منذ أوائل هذا القرن ،

منها كتاب (جواهر العلوم) الذى ظهر ١٣١٩ (١٩٠١ م) وهـو يقـع فى ٢٤٤ صفحة ، ويقف عند كثير من عجائب الكون التى أظهرها العلم الحديث ، ويقرنها بما ورد فى شأنها من آيات القرآن الحكيم • ومنها كتاب (جمال العالم) الذى ظهر فى العام التالى سنة ١٣٢٠ (١٩٠٢ م) وهو يقع فى ١٤٠ صفحة • ويعالج إثبات وجود الله والرد على شبهات الكافرين به سبحانه وتعالى • وكتاب (التاج ، المرصَّع بجوهر القرآن والعلوم) الذى ظهر سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) •• وهو يقع فى ١٩١ صفحة ، ويحتوى على اثنين وخمسين جوهرة ، كل جوهرة منها تفسر آية من آيات القرآن فى ضوء ماكشف عنه العلم الحديث ، مما كان يجهله الناس فى عصر النبوة عند نزول الوحي به ، أو تقفُ عند ظاهرة من ظواهر الكون العجيبة لتفسرها فى ضوء القرآن • ومنها كتاب (أين الانسان) الذى ألّفه سنة ١٣٢٨ (١٩١٠ م) ، وتقدم به إلى مؤتمر الأجناس الذى انعقد فى إنجلترا سنة ١٩١١ م وهو يقع فى ٢٤٠ صفحـة ، وفيه خلاصة آراء المؤلف وفلسفته • ومنه كتاب (القرآن والعلوم العصرية) وكله فى حث المسلمين على جمع شملهم ، وعلى الأخذ بالعلوم العصرية حتى يكونوا أهلا لما وعدهم الله به من القيام على الأرض بالعدل •

كان طنطاوى جوهرى شديد التحمس فى دعوة المسلمين إلى تعلم العلوم الكونية الحديثة التى كان يسميها (علوم الآفاق) • وكان موقنا أن ذلك هو أفضل السبل وأقومُها إلى إدراك إعجاز القرآن ومعرفته حقَّ المعرفة ، وردِّ الزائغين إلى هَدْيه ، الذي لم يَقْدُروه حق قدره • وإذا كانت العلوم والمعارف الحديثة هى التى صرفتهم عنه ، فهى نفسُها خليقة أن تَرُدّهم إليه اليوم كما صرفتهم عنه بالأمس • وكان أمله فى نهضة المسلمين عظيما • بل لقد كان هذا الأمل يتعاظم فى نفسه حتى ينزل منها منزلـة اليقين • فهو يقول :

« إنّ الجيل الحاضر ومن كان قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة إنما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى تتفكر فيها الأجيال الـمُقبلة ، ويخرجَ جِيلٌ إسلامى

لم تحلِمْ به العصور ، ولم تَلِده سوالفُ الدهور • وهم خلفاء الله والنبى ﷺ وهذا سيكون وأنا به من الموقِنين » •

وأجْمَعُ كُتُب طنطاوى جوهرى وأكبرها هو تفسيره للقرآن ، المسمَّى (الجواهر فى تفسير القرآن الكريم) • وهو يقع فى ستة وعشرين جزءاً ، متوسط صفحات كل جزء منها نحوٌ من مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير • وقد بدأ طبعه فى المحرم سنة ١٣٤١ (١٩٢٣ م) • وهو تفسير عجيب ، تنقَّل فيه بين فنون من العلوم والمعارف ، يَعْجَب القارىء لإلمامه بها على تفاوت ما بينها ، وعلى بعدها عن متناوَل ثقافته ، بحكم نشأته الدينية وتخرجه فى معهد بعيدٍ عن التوسع فى هذه الدراسات ، وهو (دار العلوم) • وفى الكتاب صُوَرٌ وخرائط وجداول توضح ما يعرض له من شتى العلوم كالنبات والحيوان والفلك والرياضة وعلم طبقات الأرض والتاريخ القديم ، إلى آخر هذه العلوم والمعارف الإنسانية ، التى تخرج بالتفسير عن المفهوم التقليدى لهذا العلم •

وكان الاعتراض الأكبر على هذا المنهج فى التفسير أنه يفسر الآيات القرآنية بمفاهيم تخضع للتبديل والتغيير بتغيرّ الكشوف وتبدُّلها • وكان رَد أصحاب هذا المنهج أنّ كلَّ مايقدَّم فى هذا السبيل من مفاهيم يظل فى كل حال غيرَ مُلزِم للنص القرآني ، لأن الذى يتغير ويتبدل هو فهمنا بحسب ماهو متاحٌ لنا من المعرفة ، وأن الكشوف الجديدة تضيف إلى الكشوف القديمة ولا تناقضها فى أكثر الأحيان •

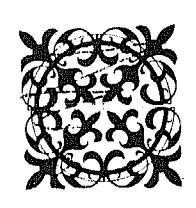
وقال المعترضون إن القرآن كتاب هدايةٍ ودينٍ وليس كتابا فى مختلف المعارف البشرية • وردّ أصحاب هذا المنهج بان ذلك صحيح • ولكن القرآن قَبَسٌ من علم الله ، يَعرِف كلُّ عصرٍ من أسراره بقدر إمكان أهله وطاقاتهم وما تتسع له معارف عصرهم • ثم لا يخرجون فى ذلك كله عن علم الله • ولا يكون شىء مما اكتشفوه مناقضا له • ومَثَلُ الناس والقرآن فى ذلك كمثل الناشىء الذى يسمع من أبيه ومن مشايخه كلاماً يَفهَم منه بعد أن تحكِمَه التجربة مالم يكن يفهمه وهو صغير • والـمَثَل

مضروب كذلك فيما حفظناه فى صغرنا من الشعر والـحِكَمَ والأمثال ٠ فلاشك أننا ندرك منها بعد نضج التفكير مالم نكن ندركه حين كنا نرددها ترديد الببغاوات ٠ والنصُّ القرآنى نفسُه يكتشف فيه المتدبر والمتروِّى جديدا كلما رَدَّد النظر فيه ٠ وذلك من صنيع الله للمسلمين ٠ إذ حفظ كتابه من التغيير والتبديل وصانه من الترجمة والتحريف ، ليكون معجزة الإسلام الخالدةَ الباقية ٠ لأن المعجزات الأخرى التى جاء بها رُسُل الله السابقون تُلزِم مَنْ عايَنَها ورآها ٠ أما القرآن فمعجزاته باقية مُلزِمةٌ لكل العصور ٠ ورحم الله شوقى إذ يقول :

جاء النبيون بالآيات فانصَرَمَت وجئتَنا بكتابٍ غيرِ مُنْصَرِم

والى لقاءٍ أقدم فيه نماذج من هذا المنهج فى التفسير ، ممثَّلا فى كتُب طنطاوى جوهرى التى أشرت عليها ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠





طنطاوى جوهرى
فى تفسير القرآن

الحمد لله ٠ والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

يُعتبر طنطاوى جوهرى من السابقين إلى اتخاذ هذا المنهج الـذى يعتمـد على الكشوف العلمية الحديثة التى برع فيها الغرب ، فى تفسير القرآن الكريم ٠ فمن أمثلة ما اعتمد فيه على التاريخ الحديث المستند إلى الوثائق والآثار ، كلامه عن التثليث عند البابليين والآشوريين والمصريين والبوذيين ، مما أظهرته الكشوف الحديثة فى زماننا هذا ، ومما لم يكن معروفا على هذا النمط من قبل ٠ وهو يَلفت النظر إلى مطابقة ذلك الذى حققه التاريخ لقول الله تعالى فى شأن اليهود والنصارى (وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابن الله ٠ وقالت النصارى المسيحُ ابن الله ٠ ذلك قولُهم بأفواههم ٠ يُضاهِئون قول الذين كفروا من قبل) ، وقوله جلّ شأنه (كذلك قال الذين مِنْ قبلِهم مثلَ قولهم ٠ تشابَهَتْ قلوبُهم) ، وقوله فى تشابه هذه الأمم التى حرفت ديانتها الأولى الصحيحة المنَزَّلة ، واشتراكها فى إحلال التثليث محلَّ التـوحيد (فـاختلف الأحزابُ مِنْ بَيْنِهم ٠ فويلٌ للذين كفروا من مَشْهَد يومٍ عظيم) ٠ وهو يرى أن كشف الآثار والعلوم فى هذا العصر عن بعض ما ينطوى عليه القرآن من أسرارٍ دليل على أن هذا العصر هو عصر ظهور الإسلام ، المرادُ بقوله تعالى (سنُريهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفُسِهم حتى يتبينَّ لهم أنه الحق) ٠ وقوله (وقُل الحمد لله : سيرُيكم آياتِه فتعرفونها) ، وقوله (ثم إنّ علينا بيانه) ٠

ويقف طنطاوي جوهرى عند قصة سحرة فرعون مع موسى عليه السلام ، ليستنبط منها أن إيمان العالِم أقوى من إيمان الجاهل وأرسخ ٠ فالسحرة ـ وهم علماء قومهم ـ لم يبالوا بتهديد فرعون ، وثبتوا على الإيمان رغمَ ما امتُحِنوا به من العذاب ٠ أما بنو

إسرائيل ، الذين كان إيمانُهم إيمانَ جُهّال ، فقد انقادوا للسامِريّ الذى دعاهم لعبادة العجل مِثلَ انقيادهم لنبيهم من قبل ، فلم يلبث أن فَتَنهم وردهم إلى الكفر • وذلك لأنهم - وهم على ما هم فيه من الجهل - يَبْهرُهُم كلُّ عجيب غريب • ولا يميّزون فى ذلك بين المعجزة الصحيحة وبين السحر الباطل •

ويقول إن الله سبحانه وتعالى أظهر المعجزات على أيدى رُسُله لُيَنبِّه الناس إلى المعجزة الكبرى التى جَهِلوا قَدْرَها ، والتى خفِيت عليهم آثارها ومظاهرُها رغم تعددها وتكررها ، ورغم وقوعها تحت حِسِّهم وفى متناوَل يدهم ، وهى الكون وما ينطوى عليه من أسرارٍ ونظام • فيقارن المؤلف بين معجزة عصا موسى عليه السلام وبين معجزات الكون التى لا تُحصَى ، مما ينطوى عليه النظام الواحد الدقيق الذى فطر الله سبحانه وتعالى عليه الأشياء ، فيقول :

« إن الناس يَعجَبون لعصا تنقلب حيّة تارة وشجرة أخرى وشمعاً آونة ، وهكذا • وهم فى الحقيقة يشاهدون هذا وهم لا يفقهون ، وينظرون ولكن لا يعقلون • إن المادة تكون ترابا وماءاً ، ثم تصير شجراً وزهرا ، كما قيل فى عصا موسى • ثم تصير حيواناً ذا شحمٍ ولحم وجلد ، فيصيرُ الدَّلوُ من جلده والشمع من شحمه • هذه أمور معروفة • ولكنّ الناس لا يُعجبهم إلا ما ليس له قانون ولا نظام • ولكنّ الله أبدع الطبيعة إبداعاً أجملَ وأبهى من إبداع عصى موسى ، لأنه يخلُق الحيّات من المواد القذرة ، والشَجَر من الأرض ، وهكذا • ولكن ليس من الحكمة أن يكون العالَم سَبَهْلَلاً بلا نظام ولا ترتيب • ولو أن الحقَّ اتّبع أهواء الناس فأصبح الشجرُ ينقلب حَيّات ، والحيّاتُ تنقلب عِصيا ، والعصُى تنقلب شجرا لارتاع العالم الذى نسكنه ، ولضل الناسُ سَواءَ السبيل ، ولجَفَل الحيوان وخاف ، ولضاعت الثقة بنظام هذا العالم • فهذه هي المعجزة • ولعَمْرى إن معجزة الله هى هذا العالم ، ومعجزة الأنبياء أقل من معجزته بما لا يُحصَى • »

ومن أمثلة اعتماد طنطاوى جوهرى على علم الفلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى :
(لقد كَفَر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ بنُ مريم • قُلْ فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يُهْلِكَ المسيحَ بن مريمَ وأمَّه ومن فى الأرض جميعـا • ولله مُلْكُ السَّمٰـوات والأرض ِ وما بينَهما • واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير) • فهو يستعين على تفسيرها بما بيَّنه علم الفلك من أن الأرض التى نسكنها كالعدم ، بعد أن كشفوا عما فى الفضاء من أجْرام عظيمة هى الكواكبُ والمجرّات • فكلُّ مجرَّة مركبـة من مئـات الملايين من الكواكب ، ومجرَتُنا التى منها شمسُنا فيها نجوم نسبةُ شمسنا إليها ضئيلةٌ جدا • حتى الجوزاء حجمُها أكبرُ من حجم الشمس خمسة وعشرين مليونِ مرة • وقالوا : لو أن أرضنا صغّرناها حتى صار حجمُها كحجم الجوهر الفَرْد ـ ومعلومٌ أنه لا يُرَى ـ لصار حجم الكون الذى يُرَى بالتلسكوب مثلَ حجم الأرض الحالي ، ولصار حجم الكون كلـه على ما يقضى به مذهـب (أينشتَـينْ) ألفَ مليونِ أرضٍ منتشرةً حولهـا فى الفضاء • إذَنْ أرضُنا على مُقتضَى تقريب هؤلاء العلماء عالَمٌ لا قيمة له ، صغـيرٌ جدا • وعلى قَدْرِ صِغَره يكون صِغَرُ سكانه وأخلاقِهمُ ... فانظر لجهل هذا الإنسان ، الذى أظهره العلم الحديث ، وأشـار له القـرآن • واعجَـبْ لنظـام الآية فى سورة (المائدة) • حَكَم الله بكفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم • لماذا كفروا ؟ لأن الأرض ومَنْ عليها لا قيمة لها بالنسبة لمخلوقاتنا • فأنا قادر أن أُهلِك هذا الإله الذى ادّعيتموه ، وأهلك أمه ، وأهلكَ من فى الأرض جميعا .... فكيف أتخِذُ ولدا فى عالَم لا قيمة له ؟ ألَمْ تروا أنى أملِك السماوات والأرض ، وأنا على كل شىء قدير • فإذا كانت أرضُكم أصبحت بالنسبة للعوالم أشبه بالجوهر الفرد بالنسبة لألف مليونِ أرضٍ ، فقد انقلب الوضع • فبعد أن كان أهلُ الأرض ِ مغترِّين بأرضهم ، ظانين هذه الكواكبَ كلَّها ما هى إلا سُرُجٌ وضِعَـتْ فى السماء لتضىء لأهـل الأرض ، أصبحت الأرض اليومَ مُلحَقَة بالعدم • وسكانُها أضعف منها وأقـلُّ حيلـة • إذَنْ سكانُ هذه الأرض قد اغترُّوا بأنفسهم حين جعلوا لله ولدا فى أرضهم الفانية الضعيفة

المعدومة فى جانب مخلوقاتـى • هذا كلُّـه يُفهَـم من قولـه (ولله مُلْكُ السَّمٰـوات والأرض) » •

وقد تأثر الطبيب الدكتور الهرّاوى بطريقة الشيخ طنطاوى فى بعض ما كان ينشرُه فى الصحف من مقالات فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن الميلادى ، مبيِّنا أن الاعتماد على العلـم فى تفسـير القـرآن هو أمثَـلُ الطـرق لردِّ شُبهــات المبشرِّين والمستشرقين • ففى مقالٍ له نشر سنة ١٩٣٢ م تحت عنوان (المستشرقون والمبشرون وكيف نرد عليهم) عارض طائفة من الآيات القرآنية بما وصل إليه العلم الحديث ، من مثل قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أن السمٰوات والأرضَ كانتا رَتْقاً ففتَقناهما • وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حَيٍّ) • وقوله سبحانه (هو الذى خلقكم من طين) وقوله (إن الله فالِقُ الحَبِّ والنَّوى ، يخرج الحيَّ من الميِّت) وقوله (واللهُ أنْبَتَكُمْ من الأرض نباتا) وقوله (ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقُّ من ربك) • وبيَّنَ أن من معجزات القرآن أن تتمشَّى آياته مع تطور العقـل البشرى فى مختلف مراحلـه ، وأن تسـاير الفروض العلمية على تباينها وتغيرها •

وأكبرُ ما يؤخذ على طنطاوي جوهري فى كتبه ، وفى تفسيره على وجه الخصوص ، نُقولُه الكثيرة فى مواضع مختلفة متعـددة عن دُعـاة تحضـير الأرواح من الغـربيين وانخداعه بدعاواهم ، دون إلمامٍ بأغوارها وأهدافها ظناً منه أن ذلك يساعد على ردِّ تيار الإلحاد الذى ينكر الحياة الأخرى ، وينكر الحساب والثواب والعقاب • والواقع أن هؤلاء الروحيين كانوا ينشرون إلحادا من نوعٍ جديد •

والسلام عليكم ورحمة الله •

٢١

التغريب

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

حين كان يسعى المسلمون إلى تقليد الغرب والأخذ بأسباب حضارته مفتونين بها ، كان الغرب يسعى فى مستعمراته وفى مناطق نفوذه إلى نشر حضارته بين المسلمين وحملهم عليها ، تقريبا للهوَّة التى تفصل بينه وبينهم ، وصيانةً لمصالحه فى هذه المناطق • فقد نشأت عند ساسة الغرب ومخطِّطى الاستعمار قاعدة سياسية حديثة تدعو إلى الاعتماد على الصداقة فى حفظ المصالح الاقتصادية بدلا من الاعتماد على الجيوش • وهذا الذى يعمل له الاستعمار الغربى من نشر حضارته فى مناطق نفوذه هو ما يسميه باحثوه وساسته بالـ Westernization أو (التغريب) •

وبرامج (التغريب) تحاول ان تخدم هدفا مزدوجا • فهى تخدم مصالح الاستعمار بتقريب الهُوّة التى تفصل بينه وبين المسلمين نتيجةً لاختلاف القيم ونتيجةً للمرارة التى يحسُّها المسلم إزاء المحتلّين لبلاده ممن يفرض عليه دينُه جهادَهم • وهي فى الوقت نفسه تضعف الرابطة الدينية التى تجمع المسلمين ، وتفرّق جماعتهم التى تلتقى على قِيَمٍ فكرية وثقافية وحضارية مشتركة ، وتتوحد وتتعاون على ما أُمِرَتْ به من أن تكون أمة واحدة فى سلمها وفى حربها • وعند ذلك يستطيع الاستعمار أن ينفرد بكل بلد على حدة ويتعاملَ معه وظَهرُه آمِنٌ من معاونة المناطق الإسلامية الأخرى له •

كانت برامج (التغريب) تقوم على قاعدتين أساسيتين • فالقاعدة الأولى هي اتخاذُ الأولياء والأصدقاء من المسلمين وتمكينهم من السلطة ، واستبعاد الخصم الذين يعارضون مشاريعهم ووضعُ العراقيل فى طَريقهم وصدُّ الناس عنهم بمختلف السبل • والقاعدة الأخرى هى التسلط على برامج التعليم وأجهزة الإعلام والثقافة عن طريق

من نَصَبوهم من الأولياء ، وتوجيهُ هذه البرامج لتطوير الإسلام وإيجاد تفسير جديد له يخدم أهدافهم ويدعّم صدَاقتهم ٠

وتطويرُ الإسلام هو مشكلة المسلمين الأولى فى هذا العصر ، وهو الخطر الأول الذى يجب أن تتظاهر الجهود لصدّ تيّاره ، لأنه خطر خفىّ يعمل له بعض الناس ، وينقاد له بعضهم الآخر ، دون أن يدركوا وجه الخطر فيه ٠ وخطرُ التطوير على الإسلام وعلى المجتمع الإسلامى يأتى من وجهين : فهو إفساد للإسلام يُشوّشُ قِيمَـه ومفاهيمـه الأصيلة بإدخال الزَّيف على الصحيح ، ويُثبِّت الغريبَ الدخيل ويؤكده ٠ فبعد أن كان الناسُ يشاركون فى تصاريف الحياة ، وهم يعرفون أن هذا الذى غُلِبوا على أمرهم فيه ليس من الإسلام،والأملُ قائم فى أن تجىء مِنْ بعدُ نهضة صحيحة ترُدّ الأمور إلى نصابها عند الإمكان ، يصبح الناس وهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الإسلام ٠ فإذا جاءهم مِنْ بَعْدُ من يريد أن يَرُدَّهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون رُوحها ٠

وتقليدُ المغلوب للغالب مرحلة طبيعية طارئة تزول مع زوال الضعف ٠ واختلاطُ الحق بالباطل والنافع بالضار فى هذه المرحلة أمر طبيعى كذلك ٠ وهو مرحلـة من مراحل التطور الصحيح ، تجىء بعدها التصـفية والتمحيص عندمـا تزول غواشي الضعف والخمول ٠فإذا برَّرنا ذلك الدّخيل ـ خيرَه وشرَّه ـ تبريرا إسلاميا فى حال الضعف والعجز ، فقد أصَّلناه من ناحية ، وقد أقحمنا على الإسلام ما يُفسد بِنْيَته من ناحية أخرى ، لأنه يصبح أخلاطا من عناصر شتى لا تجمعها رابطة ، ولا يضمها نظام ، ولا يُشبه بعضُها بعضا ٠ فهذا هو أحد الوجهين فى ضرر التطوير ٠ وهو ضرر لا يعنى إلا المسلمين ٠

أما الوجهُ الآخر لضرر التطوير ـ وهو الذى يعنى أعداءَ الإسلام ـ فهو أن هذا التطوير ينتهى بالمسلمين إلى الفرقة التى لا اجتماع بعدها ٠ لأن كل جماعة منهم سوف تذهب فى التطوير مذهبا يخالف غيرها من الجماعات ٠ لأن هذا التطوير يقوم ـ

حسَبَ ما هو مخطَّط له ـ على التفاعل بين الإسلام وبين البيئة المحليّة ، التى تختلف باختلاف بلاد المسلمين ، فى واقعها ، وفى مواريثها التاريخية السابقة على الإسلام ، التى يحرص (التغريب) على إحيائها وخلْق نوعٍ من العصبية لها ، باسم التاريخ تارة ، وباسم الفولكلور أو الفنون الشعبية تارة أخرى • ومع توالى الأيام نجد إسلاما تركيا وإسلاما هنديا وإسلاما إيرانيا وإسلاما عربيا • بل ربما وجدنا فى داخل هذا الإسلام العربى ألوانا إقليمية تختلف باختلاف البلاد • بل لقد سمعنا منذ الآن أحد المنتسبين إلى الإسلام من الهنود يتحدث فى (مؤتمر بِرنْستون للثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) سنة ١٩٥٣ م عن الإسلام الهندى الحديث • وسمعنا سمِثْ يروى عن أحد المسئولين من الترك فى كتابه (الإسلام فى العصر الحديث) كلاماً يتحدث فيه عن إسلامٍ تركي خاص •

وكان أكثر ما يجرى فى العالم الإسلامى المعاصر مما يستهدف تطوير الإسلام والاقترابَ به من قِيَم الحضارة الغربية يجرى باسم الاجتهاد • والاجتهادُ فى الشريعة حقٌّ لكل عالِم قادر عليه • ومن القدرة عليه أن يُلِمّ بكل ما قيل فى المسألة التى يبحثها ، لأنه لا يدرى إن فاته بعضُها أن يكون هذا الذى فاته سببا فى عدوله عن رأيه لو اطّلع عليه ، لأن فيه من الحقائق ما غاب عنه ولم يدخل فى تقديره • وشأنُ الاجتهاد الدينى فى ذلك هو شأنُ الاجتهاد فى أى فرع من فروع المعارف والفنون • فليس يباح للطبيب أن يجتهد حتى يبلغ من الالمام بالطب حدًّا يعترف له عنده أصحابُ هذا العلم بالقدرة على الاجتهاد فيه • وليس يُقبَل من المهندس أن يَطلُع على الناس فى الهندسة برأيٍ جديد حتى يَثْبُتَ عند علماء الهندسة أنه قادر على الابتكار • بل لا يُقبل من رجال القانون الوضعي الذى أخذناه من الغرب فى كل فروعه أن يجتهدوا فيه حتى يبلغوا درجةً من الحِذق يسلَّم لهم معها بالقدرة على التشريع • والمهندسون والأطباء والقانونيون بعد ذلك فى معظمهم مقلدون ، ولا يزيد اجتهادهم فى الهندسة والطب والقانون عن الحذق والكياسة فى تطبيق القواعد النظرية على الوقائع

العملية • فالاجتهادُ إذن لم يُغلَق بابه • ولكن المسلمين أحسّوا أن أصول المسائل وفروعها فى مختلف احتمالاتها قد فُصِّلت تفصيلا •

على أن الاجتهاد فى حال افتتاننا بالحضارة الغربية خطر غير مأمون العواقب ، يُخشَى معه أن يتحول ، من حيث يَدرِى المجتهد – إن وُجِد – ومن حيث لا يدرى ، إلى تبريرٍ للقيم الأجنبية التى هو معجب بها • فإذا لم يكن معجبا بها فالمجتمع الذى هو معجب بها لا يقبل اجتهاده • بل لا تزال تتناوله ألسن السفهاء من جُهّاله ، الذين يتصدَّون لإبداء الرأى فيما يعرفون وفيما لا يعرفون ، حتى يفقد ثقته فى نفسه ويَعْتبِرَ به غيرُه ، فيُفتِي حين يُستفتَى وعينُه على الذين يُفتيهم يريد أن يرضيهم ، وأن يظفَرَ بتقديرهم وتقريظهم ، فيجور على الحق إرضاءاً للخَلْق ، ويَذهَل عما عند الله تعجلا لما عند الناس •

وتبدو أهمية التطوير – وهو أخطر وجوه الغزو الفكري وأخفاها – لمن يقرأ عشرات الكتب التى ظهرت فى نصف القرن الأخير لساسة الغرب وباحثيه ، الذين تناولوا حاضر العالم الإسلامى • فمنذ بداية هذا القرن الميلادى تحول اهتمام المستشرقين عن الدراسات الإسلامية القديمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التى تتابع تطور الفكر الإسلامى والمجتمعاتِ الإسلامية فى مختلف بلاد المسلمين • وهى دراسات موجَّهة هادفة ، يساير تطورُها تطوُّرَ السياسة الاستعمارية واتجاهَها إلى التغريب • وذلك واضح فى كلام جب H.A.R. Gibb الذى قدَّم به مجموعة البحوث التى قام بها عدد من المستشرقين تحت عنوان (إلى أين يتجه الإسلام (Whither Islam?! والذى ظهر سنة ١٩٣٢م • فهو يقرر فى هذه المقدمة أن مشكلة الإسلام ، بالقياس إلى الأوربيين ، ليست مشكلة علمية (أكاديمية) فحسب • فإن لتعاليم الدين الإسلامى من السيطرة على المسلمين فى كل تصرفاتهم ، ما يجعل له مكانا بارزا فى أى تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامى • فالإسلام ليس مجرد مجموعة

من القوانين الدينية ، ولكنه حضارة كاملة • ويقرر سمث W. C. Smith في كتابه (الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in modern History) الذى ظهر سنة ١٩٥٧م أن الإسلام يجتاز الآن مرحلة تحول وتغير خطيرة ، وأن دراسة هذا التطور تعنى المسلمين ، لكى يشاركوا فى تطوير حياتهم مشاركة واعية ، وتعنى الأجانب ، لكى يراقبوا هذا التطور ويعرفوا مكانهم منه ، وتعنى الطرفين كليهما ، لكى يتواصلا وتقوم بينهما العلاقات • ويقول فى الفصل الثالث الذى تكلم فيه عن العرب : إن الإسلام كان عاملا أساسيا وسببا مهما من أسباب وجود الهُوة التى تفصل بين الغرْب والعَرَب • وبعد أن يقيم الدليل على وجهة نظره ، بملاحظة الفرق بين علاقات الغرب بالمسلمين من العرب ، وبين علاقاته بغير المسلمين منهم ، يعود فيقول : « لقد أصبح من الحقائق الجديدة فى مدنيتنا العصرية ، أن من الواجب سدَّ هذه الثغرات ، ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهُوَّة ، وخلْقِ الأسباب الموصِّلة للتفاهم والتواصل » • ثم يقول « وخلقُ مثل هذا التفاهم بين المدنيات المختلفة والأديان المتباينة يتطلب جهودا مبتكرة ، لا يُتَوصَّل إليها إلا بصعوبة » • وأهمُّ من ذلك كله ما لاحظه عند الكلام عن الإسلام فى الباكستان ، من أن التحررية والعلمانية والعالَمية لا تروج فى العالَم الإسلامى إلا إذا فُسِّرت تفسيرا إسلاميا مقبولا • وضرب مثلا لذلك بكتاب على عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، الذى تُرجم إلى الإنجليزية ـ لغة الباكستان الثقافية ـ والأُردية ـ لغتها الوطنية ـ ووُفِرت منه نسخ كافية فى الأسواق لتيسير تداوله •

ذلك كله واضح الدلالة فى خطر (التغريب) ، وما يطمح إلى تحقيقه من أهداف بعيدة ، وما يُبذَل فى سبيله من جهودٍ تتسم بالعمق وطول النَفَس ، وتحتاج إلى جهود فى مثل مستواها للتخطيط لصدِّ تياره ، وكشف أخطاره •

والسلام عليكم ورحمة الله •

٢٢

توجيه التغريب على أسس علمية مدروسة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ••

تغريب المجتمعات الإسلامية وتطوير الفكر الإسلامى هو موضوع الساعة • وهو يجىء فى صدر أى برنامج إسلامى ، إن كان للمسلمين برنامجٌ مدروس ومخطَّطٌ مخلص لنهضةٍ إسلامية صحيحة • ولا ترجع أهمية (التغريب) و (التطوير) من وجهة نظر الغرب ـ وأنا أعنى به يمينه وشماله على السواء فكلاهما شمال ، لأن أصحاب اليمين هم المسلمون ـ إلى ماذكرتُه فى حديثى السابق من إحلال التواصل والتقارب محلَّ التقاطع والتباعد ، وإنشاء علاقة مستقرة أساسها الود والتفاهم ، بين طرفين أحدُهما رابح والآخر خاسر ، ولكنه يرجع من ناحيةٍ أخرى إلى ما يحاوله الاستعمار من تفتيت الوحدة الإسلامية ، وما يقدِّره من أن هذا التطوير سوف يأخذ أشكالا متعددة حسب ظروف كل بلد من البلاد الإسلامية • وهذا الهدف هو ما يكشف عنه كلام جِبْ فى كتابه (إلى أين يتجه الإسلام ؟) حين يقول : « ويجب أن نلاحظ أن موضع البحث ليس هو : هل تبقى الروابط القديمة التى كوّنَتْ هذه الوحدةَ ثابتةً دون أن تتغير أو تتطور ؟ فقد تتطور مظاهر هذه الروابط • وقد يصبح مفهوم الوحدة مغايرا لمفهومها فى العصور الوسطى • فكل ذلك ثانوى ليس بذى خطر • ولكنّ المهم هو : هل ستكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الإسلامية ؟ وهل سيقوم إحساس بوحدة العمل والهدف ؟ أم أن الآراء الجديدة وحاجات الحياة الجديدة ستنجح آخر الأمر فى تشتيت المجتمع الإسلامى وتحطيم وحدته ؟ » •

وقد سلك الاستعمار إلى (التغريب) كل سبيل ، وتغلغل فى كل الميادين • فشمل السلوك الفردى ، والآداب الاجتماعية ، والفنون والآداب • واستعان عليه بالبرامج

الدراسية ، وبالصحافة ، وبالمؤتمرات التى يتعاون فيها المسلمون والمستشرقون على توجيه الفكر الإسلامى ، وبهيئة الأمم المتحدة ، وبمؤسسة (اليونسكو) و(التربية الأساسية) فيها على وجه الخصوص • وكان من أهم ما اعتمد عليه فى ذلك من الأساليب ،نشرُ الاهتمام بالآثار القديمة ، وتوجيهُه إلى تدعيم عصبيات إقليمية ، تتسم بالغلو والإسراف فى الدعوة إلى حصر الانتباه فى أوطانٍ صغيرة ، وعدم الاكتراث بما يجرى خارجها ، وقد كادت هذه الأساليب تنجح ، فى الفترة التى بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، فى إيجاد هذه العقلية الانفصالية بين المسلمين ، حتى رأينا بين العرب من يزعم أن بلده أقرب للغرب منه للشرق ، ورأينا بين المسلمين من يتكلم عن الإسلام الحديث والإسلام القديم ، بل رأينا منهم من يتحدث عن الإسلام الهندي والإسلام التركي • كادت هذه الأساليب تنجح ، ولم يضع لها حدًّا فى بلاد العرب إلا الدعوة إلى الوحدة العربية • ومن الحق أن هذه الدعوة قد شابها فى المَخَاض ولازمها فى مولدها ، ما يدعو إلى الريبة فى أمرها • فقد نشأت فى أول أمرها قبل الحرب العالمية الأولى معارضة للجامعة الإسلامية • ثم ولدت بعد الحرب العالمية الثانية فى حضانة إنجليزية ، للسيطرة على الوعي الإسلامى الذى بدأ قبيل هذه الحرب • ومع ذلك فالجامعة العربية خليقة أن تؤتي ثمارها فى وقف هذه النزعة الشعوبية عند غير العرب من المسلمين ، إذا صُحِّح مَسارُها بإشرابها روحاً إسلامية ، وإذا خلت من روح العصبية العنصرية ، واعتُبِرت الخطوة الأولى فى طريق طويل ينتهى بوحدة الشعوب الإسلامية •

من هذا العرض السريع لبعض جهود الغرب وعلمائه في توجيه (التغريب) على أُسس علمية مدروسة ، يبدو تقصيرنا فى إهمال الدراسات الغربية ، التى كانت ولاتزال أساسا لهذا التوجيه ، ولغيره من التوجيهات السياسية • إن الغرب يبنى سياسته على أساس دراسات علمية تقوم على استقصاء ما يكتبه المسلمون • فلماذا لا نبنى سياستنا فى مقاومة مكايده وإحباط خططه والسبق إلى مبادأته على أساس علمى

مدروس ، يقوم على استقصاء ما كتبه ساسته وعلماؤه عن الشرق وعن العالم الإسلامي ؟ ولماذا لا نتعاون على نقل هذه الدراسات ـ وهي كثيرة ضخمة لا تنهض بها الجهود الفردية ـ إلى العربية ، بدَلَ الاشتغال بنقل السخيف التافه والمدمِّر الهدام من القصص والآداب ٠

إن كثيرا من الظواهر التي تبدو للنظرة السطحية العاجلة قليلة الخطر ، لها دلالات عميقة ونتائج خطيرة ، تُعين مثلُ هذه الدراسات على كشفها ٠ فهذا هو جب Gibb ، على سبيل المثال ، يتحدث عن تطوير الفنون التطبيقية في مؤتمر (برنستون) سنة ١٩٤٧ ، فيقول : « وعندما تَشيع الفنون التطبيقية ويتعزز كيانُها ـ ولا بد في سبيل هذا من جهودٍ جبّارة ـ سيؤثر ذلك في القيم الاجتماعية عند المسلمين بكل ألوانها ٠ ومن يدري ماذا يُخبّيء الزمن من تطورات فنية قد تكشف عنها السنوات القليلة القادمة ؟ من يدري ماذا سيكون لهذه التطورات من آثار على الـمُثُل والنظم الاجتماعية والإنسانية ؟ من يدري ؟ قد تضطر هذه التطوراتُ الفنية وما تتمخض عنه من نتائج زعماءَ الشعوب الإسلامية أن يقربوا بـمَنْطقهم من التفكير الغربي » ٠ ويتحدث سمِثْ W. C. Smith على سبيل المثال أيضا ، عن الارتباط بين الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة وبين العلمانية ، فيقول في كتابه (الإسلام في العصر الحديث) : « إن وزارة التعليم في تركيا تعتبر الدراسات الإنسانية ـ وهم يطلقون هذه التسمية على الآداب اليونانية واللاتينية القديمة ـ أساسا لحضارة هذا العصر ٠ وقد اتخِذت خطوات للنهوض بترجمة كثير من الكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، ونَشرِ هذه المترجمات بصفة منتظمة ٠٠ وهذا هو جزء من تصميم تركيا على أن تكون قطعة من أوربا ٠ فزعماء الوطنية يُدخلون هذه الآداب في الثقافة التركية عن تبصُّرٍ وروية ٠ ولنا أن نقول إنهم يرمون بذلك إلى إدماج مفاهيمها في الحياة التركية ٠ وتأثير هذه المترجَمات في اللغة وفي الفكر ظاهر ملحوظ ، وهذه الحركة هي تطبيق لقرارٍ واضح محدَّد اتخذته تركيا ، وهو أن تصبح غربيّة في حضارتها ، مع

ملاحظة أن أصول الحضارة الغربية والعصرية هي الإنسانية ، وهى فى آخر الأمر مستمدة من التراث اللاتينى اليونانى القديم » • وهذا هو نابليون ، على سبيل المثال كذلك ، يشير إلى أثر المسرح وأهميته فى تطوير المجتمع ، فيكتب إلى (كليبر) بعد مغادرته مصر يقول : (لقد عَوَّلتُ على أن أرسل إليك فرقة (الكوميدى فرانسيز) • وتلك فكرة أحرص عليها ، أولاً لتسلية جيوشنا ، وثانيا لتغيير عوائد هذه البلاد بإثارة عواطفها » •

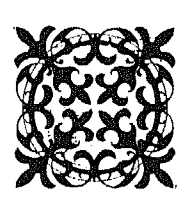
إن التطـوير قد يبـدو ضئيل الخطـر إذا نَظـرَ إليه كل باحـث من زاويته الخاصة • فنظر إليه الأديب من زاوية الأدب ، واللغوى من زاوية اللغة ، والفنان ـ مصوِّرا أو نحاتا أوموسيقيامن زاوية فنه ، ومصمِّم الأزياء من ناحية الزي ، وصاحبُ الفقه والقانون من زاوية فقهه وقانونه ، وهكذا ••• والوقعُ أن إدراك حقيقة الشىء يستلزم النظرة الشاملة إليه ، التى تحيط به من كل نواحيه • والذى ينظر إلى التطوير هذه النظرة الشاملة ، يستطيع أن يدرك خطورته ومدى آثاره • فإذا عمل صاحب اللغة على تطوير اللغة العربية ، وعمل الخطاط على تطوير الخط العربي ، وعمـل الأديب على تطوير الأدب وطرائق التعبير والتخيل والنظم والأسلوب ، بل والموضوع ، وعمل الموسيقى على تطوير الألحان ونظامها ، وعمل الأخلاقيون والاجتماعيون على تطوير القيم والعادات والتقاليد ، وتطوير الزىواللباس والأثاث • فأى صلةٍ تبقى لنا بعد ذلك بماضينا ؟ وأى خليَّة من خلايا عقولنا ، وأىُّ زاوية من ضمائرنا ، وأى قِطاع من شخصياتنا ، يصبح امتدادا لعقول الآباء والأجداد وضمائرهم وشخصياتهم ؟ بل أىُّ صلة سوف تربط المسلم بالمسلم ، والعربي بالعربي ، وليس هناك مايضمن أن يكون التطور فى كل قطاعٍ من هذه القطاعات هو هو فى كل بلدٍ من بلاد المسلمين والعرب ؟

أىُّ مُثُلٍ صالحة من نماذج السلف المقتدى به ،وأىُّ قِيَمٍ موحَّدة يمكن عند ذلك أن تجمعنا ؟ وأىُّ شىء يَفْهَم القارىء ويتذوق المتذوِّق إذا قرأ كُتُب آبائه وأجداده ، أو

سمع شعرهم ، أو رأى فنونهم ، واللغةُ غيرُ اللغة ، والخطُّ غيرُ الخط ، والأسلوبُ غيرُ الأسلوب ، والموضوعُ غير الموضوع ، والقيمُ الفكرية غيرُ القيم الفكرية والفنّية ؟ وأيُّ شيء يهز السامع إذا سمع موسيقى القدماء ؟ بل أى شيء يهزه إذا سمع القرآن يُرتَّل بلحون العرب ، ونحن مَنْهيّون أن نرتِّله بغير لحونهم ؟

والذى يعتبر تعدد الزوجات شيئا بغيضا ينافي المدنية والتهذيب ، ويراه ضرباً من الشهوانية الحيوانية والبِداثية البربرية ، أليست تنفر نفسُه من سيدنا رسول الله ﷺ ومن أصحابه ، حين يقرأ فى سِيرَهم وأخبارهم أنهم كانوا يجمعون بين الزوجات ؟

ذلك هو ما دعا جب وسمث ونابليون فيما ذكرناه ، وغَيرهم فيما لم نذكره ، إلى أن يتصوروا النتائج الخطيرة التى تترتب ـ لصالحهم ـ على التطوير . وذلك بعضُ ماتنطوى عليه الآية الكريمة من حكمة ، فى قول الله تبارك وتعالى : (وأنَّ هذا صِرَاطى مستقياً فاتَّبِعوه . ولا تتَّبِعوا السُّبُل فتَفَرَّق بكم عن سبيله . ذلكم وَصَّاكُمْ به لعلكم تتقون) .



٢٣

الحرية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كان من أبرز وجوه أزمة العصر ، وما أصاب الشباب فيها من تمزق نفسي واضطراب فكري وسلوكي ، دعواتٌ تتستر تحت اسمٍ محبَّب إلى الشباب هو (الحرية) • وكانت هذه الدعوة ذاتَ شُعبٍ كثيرة متعددة ، تشمل حرية الفرد فى أن يقول ما يشاء ، وفى أن يذيع على الناس فى الكتب والصحف ما يشاء ، وفى أن يفعل ما يشاء ، دون أن يكون للقانون ـ دينيا كان أو وضعيا ـ سلطانٌ عليه • لأن أصحاب هذه الدعاوَى لا يرون للدولة حقا فى أن تفرض على الناس أى التزام ديني أو فكرى أو خلقى • وأكثرُ الدعاة الأولين الذين تأثروا بهذه الدعوة وروّجوها بين المسلمين قد تأثروا بها من طريق كُتّاب الثورة الفرنسية ومفكريها • ولكن أكثر الذين خدعوا بها وتحمسوا لها لم يدركوا أغوارها البعيدة ، وما تنطِوى عليه من مخاطر ومفاسد • لم يدرك هؤلاء من الحرية إلا الجانب الذى يحقق للناس أنواعا من الضمانات التى تحميهم من التعسف والاستبداد والقهر ، وتمنحهم الحق فى أن ينقدوا الخطأ والظلم ، دون أن يُرهِبهم خوف الأذى فى أنفسهم أو فى أموالهم من جرّاء هذا النقد • ولكنهم لم يفهموا من الحرية معناها الواسع الذى عنته الثورة الفرنسية ـ وهى ثورة لا دينية ، بل هى ثورة معادية للدين ، وإصبَع الماسونية وأثرُ الصهيونية العالمية فيها واضح مشهور ـ لم يفهموا الحرية فى ذلك المعنى اللاديني الواسع ، الذى يشمل حماية القانون لكل الأعمال والأقوال التى تهز القيم الدينية والأعراف الاجتماعية ، وتجاهر بمخالفتها وتسفيهها ، والتى تنشر الفوضى وتفرق الجماعة ، بالتشكيك فيما يلتقى عليه الناس من عقائد وقيم ، والتى تطلق للشهوات العنان •

فرفاعة الطهطاوى يعقد فى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) فصلا عن (الحرية العمومية ، والتسوية بين أهالى الجمعية) ، يقسّم فيه الحرية إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية ٠ ويقول إن الحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى إلى إسعاد الممالك ٠ ومع أنه قد أدرك أن مجتمع الثورة الفرنسية مجتمعُ إرادة وليس مجتمع طاعة ـ على حد تعبيره ـ فهو مَبنيٌّ على الإرادة الحرة التى لا تقيّدها طاعة لشريعة إلٰهية لا تُقِرّها هذه الثورةُ المعادية للدين ، وقوانينُه كلها تصدر عن العقل الحر الذى لا يعترف بما وراء الحياة من نعيم أو جحيم ، ولا يؤمن بما وراء الظاهر من حكمة غائبة يرشد إليها الوحي ، أو غايةٍ بعيدة يهدى إليها الدين ٠ مع أنه قد أدرك ذلك كله من أمر الفرنسيين فى كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) ، فإنه لم يستطع أن يدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعددة لكلمة (الحرية) ٠ ولم يستطع أن يدرك أن نقل هذه الآراء إلى المجتمع الإسلامى يمكن أن ينتهى إلى النتيجة نفسها التى انتهت إليها فى فرنسا :نبذِ الدين،وتسفيهِ رجاله،والخروجِ على حدوده ٠ لم يدرك ذلك، ولم يلاحظ إلا الجانب البراق الذى يأخذ نظر المحروم من الحرية ، حين يراها تمارَس فى مختلف صورها وألوانها ، وفى أوسع حدودها ٠ فكان كالجائع المحروم الذى بهرته مائدة حافلة بألوان الأطعمة ، فيها ما يلائمه وما لا يلائمه ٠ ولكنه لم ينظر إليها إلا بعين حرمانه ، ولم يرها إلا صورة من النعيم الذى يتوق إليه ويشتهيه ٠ وبلغ الافتتان بالحرية قمته فى كتاب عبدالرحمن الكواكبي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، الذى نشر مفرقا فى صحيفة (المؤيد) سنة ١٨٩٩ م ثم جمع فى كتاب سنة ١٩٠١ م ٠

وواقع الأمر أن اليهود والصهيونية العالمية كانت من وراء شعار الثورة الفرنسية المشهور (الحرية والإخاء والمساواة) الذى يمثله عَلَمُ الدولة المثلّثُ الألوان ٠ وهو شعار ماسونى معروف ٠ ولم يستفد أحد من هذا الشعار كما استفاد منه اليهود ،

الذين أصبح زمام السياسة والفكر والمال فى أيديهم باسم هذه الشعارات التى حمتهم مما كانوا يتعرضون له من الاضطهاد والمصادرة • ومن شاء فليقرأ فى هذا الصدد خطط الصهيونية العالمية الهدامة المشهورة باسم (بروتوكول حكماء صهيون) أو (مقرَّرات حكماء صهيون) • ليقرأ فى البروتوكول الرابع :

« إن (لفظ الحرية) تجعل المجتمع فى صراع مع جميع القوى • بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها • على أن (الحرية) قد لا تنطوى على أى ضرر • وقد توجد فى الحكومات وفى البلاد دون أن تسىء إلى رخاء الشعب • وذلك إذا قامت على الدين والخوف من الله والإخاء بين الناس ، المجرَّد من فكرة المساواة التى تتعارض تماما مع قوانين الخليقة ، تلك القوانين التى نصَّت على الخضوع • والشعبُ باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ويعيش فى سلام ، ويسلِّم للعناية الإلهية السائدة على الارض • ومِنْ ثَمَّ يتحتم علينا أن ننزع من أذهان المسيحيين فكرة (الله) والاستعاضة عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية) •

وليقرأ فى البروتوكول التاسع :

« ولكى نحطِّم التنظيمات التى أقامها غيرُ اليهود عاجلا ، فإننا قد دعَّمناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتها • فقد كانت الأجهزة تسير فى الماضى بنظامٍ صارم ولكنه عادل • فأحللنا محله نظاما متحررا غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية ، وتحكمنا فى إدارة الصحافة وفى نمو الحرية الفردية • والأهمُّ من ذلك كله إشرافنا على التعليم ، وهو المعوَّل الرئيسى للحياة الحرة • » •

وليقرأ فى البروتوكول الثانى :

« أما غيرُ اليهود فإنهم لا يستفيدون من تجارب التاريخ التى تمر بهم • ولكنهم يتمسكون بنظريات روتينية دون تفكير فى النتائج التى يسفر عنها هذا المسلك • لذلك فنحن لا نعير غيرَ اليهود أية أهمية • فلْيلهوا ما طاب لهم اللهو حتى ينقضي الوقت • وليعيشوا على أمل ملذات جديدة أو فى ذكرى مُتعٍ سالفة • وليعتقدوا أن

هذه القوانين التى أوحينا بها إليهم ذاتُ أهمية قصوى • فبهذا الاعتقاد الذى تؤكده صحافتنا تزيد من ثقتهم العمياء فى هذه القوانين ... يجب ألاّ يكون هناك اعتقاد فى أن مناهجنا كلمات جوفاء • فنحن الذين هيّأنا لنجاح دارْوِين وماركس ونيتْشة • ولم يَفُتْنا تقدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات فى أذهان غير اليهود » •

هذا الهدم باسم (الحرية) يبدو ظاهرا ، على سبيل المثال ، فى مقال نشره رئيس تحرير مجلة (الهلال) سنة ١٩٢٤ م تحت عنوان (حرية الفكر) . ومؤسس المجلة (جورجى زيدان) وأبناؤه ـ ومنهم صاحب هذا المقال ـ من كبار المنتمين إلى الماسونية • يقول صاحب المقال إن الناس واهمون حين يتخيلون أنهم أحرار فى تفكيرهم ، فهم يخضعون عن وعى ٍ أحيانا ، وعن غير وعى ٍ فى كثير من الأحيان ، لقيود ثلاثة ، وهى : قيود الوراثة ، وقيود البيئة بكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين ، وقيودُ النفس بما فيها من ميول وعواطف وما لها من مصالح • ويبنى الكاتب على ذلك أننا لا نفكر لنصل إلى رأى ٍ أو عقيدة • ولكنا فى الواقع نعتقد أولا ، ثم نحاول بتفكيرنا أن نبرر هذه العقائد • وهو يدعو الناس إلى أن يحرّروا أنفسهم ثم يعتقدوا • « فكل الأنبياء والمصلحين كانوا أحرار الذهن مُعتَقَى الفكر • كلُّ الأنبياء كانوا من أعداء القديم البالي • كل الأنبياء والمصلحين تمردوا على النُظم السارية والآراء الشائعة » •

فالأنبياء عند كاتب المقال ثُوَّار ككل من حفظ التاريخ ذكرهم من الثوار . وما أكثر من فيهم من الأفاقين والمغامرين والمفسدين • والدينُ ثمرة لتفكيرٍ فردىٌ حر ، وليس وحياً منزَّلاً من عند الله • ومن هنا يجىء الكفر الذى يريد كاتب المقال أن يدفع إليه قارئه ، بإنكار الوحى ، وما يترتب عليه من خضوع الدين للتغيير والتبديل والتنقيح ، بل الرفض ، ما دام عملا فرديا حرًا • بل هو يريد أن يحمل الناس على أبعد من ذلك ، حين يدعوهم إلى أن يسلكوا هذا الطريق الذى زعم أنه النقطة التى بدأ منها

الأنبياء ، وهى الشك فى كل العقائد والآراء الشائعة المتداولة والموروثة • ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون •

وكان بعض ما ينشر ويذاع باسم الحرية يتخذ أسلوبا أكثر خفاءاً ولكنه أشدُّ خطرا ، وأبلغُ أثرا • ذلك أنه لا يَعْرِض للدين بتصديق أو تكذيب • ولكنه يقارن بينه وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير ، تاركا للقارىء أن يستنتج من ذلك أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير التى لا تصلح إلا للتلهية ولإمتاع الخيال وتزجية أوقات الفراغ ـ وأنها من إنتاج العقل البِدائى الذى كان يعتمد على الخيال فى تعْليل ما يحيط به من أسرارٍ عجز عقله عن إدراك حقيقتها • والواقع أن الاتفاق الذي نجده فى بعض الأحيان بين الأديان السماوية وبين هذه الأساطير الوثنية ، مَرَدُّه إلى أن هذه الأساطير الوثنية هى فى حقيقة أمرها صورة محرَّفة من أديانٍ سماوية سابقة • فالله سبحانه وتعالى يقول : (وإنْ مِنْ أمّةٍ إلا خَلاَ فيها نَذِيرٌ) • ويقول تعالى فى دعوى اليهود أن عُزَيْراً ابن الله وفى دعوى النصارى أن المسيح ابن الله (يُضاهِئون قولَ الذين كفروا مِنْ قَبْلُ) وفى آية أخرى (كذلك قال الذين من قَبْلِهم مِثْلَ قولهم • تشابهت قلوبهم) • ومعنى ذلك أن هناك أديانا سماوية سابقة ذهب بها أصحابها هذه المذاهب فى التحريف ، فجعلوا الرُسُل الذين بلّغوها أربابا من دون الله • واللهُ سبحانه وتعالى يقول مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم (ولقد أرسلنا رُسُلاً من قَبْلِك • منهم من قَصَصْنَا عليكَ ومنهم من لم نقصُصْ عليك) •

والسلام عليكم ورحمة الله •



٣٤

تحرير المرأة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

كان من أبرز الدعوات التى تشعبت عن الحرية دعوة شغلت الرأى العام فى بلاد العرب ، بل فى كل بلاد المسلمين ، ولا تزال • وهى الدعوة إلى مايسمَّى (حقوق المرأة) أو ماكان يسمى عند الدعاة الأولين لهذه الحركة (تحرير المرأة) •

ظهرت الحركة فى أول أمرها هادئة تدعو إلى تعليم المرأة • وظهرت بوادر ذلك فى كتاب رفاعة الطهطاوي (المرشد الأمين للبنات والبنين) وفيما كتبه فى (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) من تهوين اختلاط الرجال بالنساء فى أوربا مما يكاد أن يكون دفاعا عنه • وهو واضح الدلالة على تأثر الطهطاوي بما شاهده فى المجتمع الأوربى أثناء إقامته فى باريز ، مُشرِفا على البعثة العلمية التى أرسلها محمد على باشا لتعلم الهندسة والطب والعلوم الحديثة ، واختارها من طلبة الأزهر • وهذا التأثر بالحضارة الغربية واضح أيضا فيما كتبه الطهطاوي في (المرشد الأمين) عن كراهية تعدد الزوجات • وقد أثار محمد عبده هذين الجانبين بعد ذلك فى بعض مقالاته التى كان ينشرها فى (الوقائع الرسمية) • ولكنّ الموضوع أثير فى عنف لفت الأنظار عندما أصدر فيه قاسم أمين كتابين ، صدر أحدهما ١٨٩٩ م وهو كتاب (تحرير المرأة) ، وصدر الثانى فى العام التالي سنة ١٩٠٠ م وهو كتاب (المرأة الجديدة) • وقد حاول قاسم أمين أن يخفى فى الكتاب الأول دوافعه الحقيقية وهى الافتتان بالحضارة الغربية ليبدو كأنه يستنبط أحكامه من كتاب الله وسُنّة رسوله • ولكنه لم يلبث أن كشف عن حقيقة نواياه فى كتابه الثانى حين أثاره الذين عارضوه بردودهم العنيفة ، فدعا الناس فى صدر هذا الكتاب إلى أن يتخلصوا مما وقر فى نفوسهم من أن

عاداتهم هى أحسن العادات ، وأن ماسواها لايستحق الالتفات • وقال إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجرى فى إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعوِّد نفسه على أن يجرى نقدُه للحوادث على أسلوب علمي • ثم قرر فى آخر كتابه أن التمدن الإسلامى قد بدأ وانتهى قبل أن يُكشَف الغَطاءُ عن أصول العلم (كذا ؟ !) فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشرى ؟ وفى هذا الكتاب الذى كشف عن حقيقة نوايا قاسم أمين ودوافعه ، اختار المؤلف أسوأ مافى الحضارة الإسلامية من صور الفساد ليزعم أنها أقل من المستوى الذى بلغه اليونان والرومان فى كفالة الحريات ، وختم هذه المقارنة الظالمة الـمُغْرِضة بقوله : « متى تقرر أن المدنية الإسلامية هى غيرُ ماهو راسخ فى مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه لا بما كانت فى الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسِيَّانِ عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن • وسواء صح أن النساء فى أزمان خلافة بغداد والأندلس كنَّ يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح • فقد صح أن الحجاب هو عادة لايليق استعمالها فى عصرنا » •

والواقع أن الحركة كانت ثمرة لكثير من العوامل التى كانت تتفاعل فى بعض المجتمعات الإسلامية ، وفى تركيا ومصر على وجه الخصوص • وقد اشتركت هذه العوامل جميعا فى مولد هذه الحركة • فهى ثمرة من ثمار الدعوة إلى الحرية • لأنها تعتمد على أن الحرية الشخصية قد أصبحت فى العصر الحديث حقا لكل إنسان ، ذكراً كان أو أنثى • ولأن هذه الحرية هى التى حَمَتْ قاسم أمين ومنحته الحق فى أن يقول ماقاله مما يعارض الإسلام ويؤذى الرأى العام ويمتلىء بالأكاذيب والمغالطات • والدعوة فى الوقت نفسه ثمرة من ثمار الحركة التى تدعو إلى تحرير النُظُم والقوانين الاجتماعية من سيطرة الدين ، أو ما كان يسمَّى بفصل الدولة عن الدين • ثم إن الدعوة في أحد جوانبها ثمرة من ثمار الافتتان بالحضارة الغربية ، لأنها تريد أن تحيل المرأة المسلمة فى كل أحوالها على النمط الذى تمثله الحضارة الغربية • وهى فى جانبٍ

آخر ثمرة من ثمار (التغريب) لأنها أهم ما عُنِي به الاستعمار ، فيما كان يبذله من جهود لحمل المجتمعات الإسلامية على حضارة الغرب وتقريب مابينهما من فوارق ، بعد أن وَضَح أن وضع المرأة هو أبرز وجوه الخلاف وأبعدها فى سعة الخُلْف بين الطرفين ، مما لايُرجَى معه اتفاق إلا بفناء أحد المذهبين فى الآخر .

انصرف جهد المؤلف فى كتابه (تحرير المرأة) إلى التدليل على مازعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده . بينما غَلَب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثانى (المرأة الجديدة) . فأقام بحثه فيه على الإحصاء الذى تدعمه الأرقام والوقائع – وهى على ماهو معروف تقبل الخداع والتلاعب من وجوه كثيرة – واستند فى تبرير مذهبه إلى آراء بعض كتاب الغرب وباحثيه فى فروع الدراسات النفسية والاجتماعية والطبية ، وعلم وظائف الأعضاء والتشريح منها على وجه الخصوص .

تناول قاسم أمين فى كتابه الأول (تحرير المرأة) أربع مسائل : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق . وذهب فى كل مسألة من هذه المسائل إلى مايطابق مذهب الغربيين زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام . ولاتزال الحجج التى قدمها هى سند الذين يتناولون هذه القضايا حتى الآن ، لايجدون مايضيفونه إليها .

فى الحجاب يزعم أن الاسلام أباح للمسلمة أن تظهر بعض أعضائها ، متوسعا فى تفسير (إلا ماظهر منها) ومتجاهلا لما يدل عليه قوله تعالى (يُدْنِين من جلابيبِهنَّ عليهن) وقوله (ولْيَضرِبْن بخُمُـرِهِن على جُيوبهن ولا يُبْدين زِينَتَهن) وقوله (ولا يَضرِبْن بأرجُلهن لِيُعْلَم مايُخْفِين من زِينَتهن) . وزعم أن قَصْر المرأة فى بيتها وحظر مخالطتها للرجال تشريع خاص بنساء النبي ، وأن نساء المسلمين عامة منهياتٌ عن الخلوة بالأجنبى فقط . كأن نساء النبى فى وهمه أحوج النساء للتحرز مما يَريب ، ولسدِّ الذرائع إلى الفساد .

وفى اشتغال المرأة بالشئون العامة جمع كل مافى التاريخ من حالات خاصة شاذة ، مع تحويرها وتحريفها ، ليصور أن عددا من النساء شاركن فى مصالح المسلمين العامة فى صدر الإسلام ٠

وفى تعدد الأزواج اعتمد على صدر الآية فى قوله تعالى (ولَنْ تستطيعوا أن تَعْدِلوا بين النساءِ ولو حَرَصْتُم) وركَّب منه ومن قوله تعالى (فان خِفْتُم أن لا تَعْدِلوا فواحدة) مقدمتين يصل منهما إلى تحريم التعديد ، متجاهلا عَجُز الآية الأولى الذى يبين أن المقصود بالعدل هو العدل القلبي وهو غير مستطاع ، ومتجاوزا عن صدر الآية الثانية فى قوله تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع) ٠

وفى الطلاق يعتمد على قوله تعالى (فانْ خِفْتم شقاقَ بينهما فابعثوا حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها ٠ إنْ يُريدا إصلاحاً يُوَفِّق اللهُ بينهما) ويستند إليه فى تقديم مشروع قانون لايتم فيه الطلاق إلا بحكمٍ قضائي ، متجاهلا كل ماسبقه من آيات ، وما ورد فى غير هذه السورة من نصوص صريحة تقرر أن (الرجال قوامون على النساء) وأن عقدة النكاح بيد الرجل ، وأن التحكيم الذى تشير إليه الآية هو بين الأهل ، لا يخرج عن حدود الأسرة ، وليس القضاء طرفا فيه ، لأن العلنية فيه تدعو إلى اللجاج وإلى التجنى والافتراء وكشف ماينبغى سترُه من الأسرار ٠

والكتاب نموذج للمحاولات التى تُبذل لتطوير الإسلام وحمله على الحضارة الغربية ، بتفسيره على الوجه الذى يلائمها ، وحمل الحضارة الغربية عليه ، بتبرير مذاهبها وأنماطها بنصوصه بعد تحريفها وتأويلها ٠ ومذهبُه فيما يورده من نصوص ، سواء كانت نصوصا من القرآن أو من كتب التاريخ يقوم على خلع النصوص من سياقها ، باختيار مايناسبه مما تقوم به حُجّتهُ فى مزاعمه ، وتجاهُلِ مالا يناسبه مما يعارض أهواءه معارضة صريحة حاسمة ، وتسخيرِ النصوص لخدمة هدفه بالتأويل والتحريف والبتر ، وتتبع الشواذ والرُّخَص والضعيف من الحوادث والأحكام والروايات ، وتصيُّدِها على مدى القرون واختلاف الظروف والأحوال والمصادر ، لتبدو حين تُحشَد مجتمعةً ويُضَمُّ بعضها

إلى بعض فى حَيِّزٍ واحد كأنها عُرْفٌ جارٍ وأمرٌ شائع . وهذا التزييف والتزوير هو الذى وصفه شوقى فى إحدى قصائده حين قال عن قاسم أمين :

ولكَ البَيانُ الجَـزْلُ فى أثنائـه العِلْـمُ الغزير
فى مطلـبٍ خَشِـنٍ كثيـ ـرٍ فى مَزالقـه العُثور
مـا بالكتـاب ولا الحَـ ـديث إذا ذكرتَهما نَكير
حتـى لَنَسْـألُ هل تَغَا رُ على العقائـد أم تُغِير

كان قاسم أمين بكتابيه هو أول من أثار القضية . بل هو أوّل من أوجدها من العَدَم . وكان أسلوبه فى ذلك هو الأسلوبَ الذى عُرِف وتكرر بعد ذلك فى كل مايهدفُ إلى تحريف شريعة هذه الأمة ونقلها عن جِبلّتها وتمييع شخصيتها وافساد كيانها وتفريقها فيما جمعها الله عليه وألَّف بين قلوبها فيه . يعتمد هذا الأسلوب على اختلاق قضايا لا حقيقة لها ، وافتعال مشاكل يتوهمون وجودها تحت أسماء خلابة براقة ، كالنهضة والتحرر والتطور ومتابعة ركب الحياة . وهى موضوعات منوعة تشمل الحياة فى شتى نواحيها . يخترعونها ثم يهوِّلون من شأنها ويُكْثِرون من الأخذ والرد وطرح وجهات النظر حولها فى الصحف وفى مختلف وسائل الإعلام وأجهزته ، حتى يلفِتوا أنظار الناس لها ، وتصبحَ أمرا واقعا وحقيقة ماثلة بَعْدَ أنْ لم تكن . وينشأ جيل من الناس مَرَنَت أُذنه منذ وَعَى على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات ، فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لابُدَّ لها من حل . ويتجه فى أغلب الأحيان ــ كما جرت عادة الناس ــ إلى الحلِّ الوَسَط الذى يُرضى الطرفين المتخاصمين حسب وَهْمه . والخاسر فى حقيقة الأمر هو صاحب الحق . والربحُ كلُّه للباطل وأصحابه . لأنهم يمضون فى اتخاذ هذا الأسلوب نفسِه جِيلاً بعدَ جِيلٍ حتى يبلغوا مايريدون .

وسأحاول فيما يلى من أحاديث أن أوضح بعض جوانب الموضوع فى وجهَيْنِ من أبرز وجوهه ، وهما : الاختلاط ، واشتغال المرأة بالأعمال العامة .

والسلام عليكم ورحمة الله .

٢٥

قاسم أمين

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

لقِي كتابا قاسم أمين (تحرير المرأة) و (والمرأة الجديدة) مقاومة عنيفة ، وجوُبِهَ صاحبُهما بما يكره من غليظ القول وفاحشه ، بين مقالات صحفية ورسائل يطلب إليه أصحابُها أن يسمح لهم بالائتناس بزوجته ومجالسة أهل بيته • ولكنّ دعوته لقيت رواجا بعد الحرب العالمية الأولى فى مصر على وجه الخصوص • فخلعت المرأة النقاب ، ثم استبدلت المعطف الأسود بالثوب الساتر الفضفاض الذى كانت تلتحف به ، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملّونة • ثم أخذ المِقَص يتحيَّفُ هذه الثياب فى الذيول وفى الاكمام وفى الجيوب • ولم يزل يجور عليها ويضيّقها على صاحبتها حتى أصبحت كبعض جلدها • ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطىء البحر فى المصايف • وقطعت المرأة مرحلة التعليم الابتدائى والثانوى واقتحمت الجامعة تشارك الشباب فى قاعات الدرس • دخلت كلية الآداب أولا • ثم تسربت إلى كلية الحقوق ، ثم انتشرت فى الكليات الأخرى على اختلاف التخصصات من طب وهندسة وعلوم وتجارة • وكان آخر ما اقتحمته كلية الزراعة • وخُصِّصَت لهن الصفوف الأولى فى بدء الأمر ، ثم تُرِكْن للاختلاط الكامل يَنْحشرِْن بين الصفوف والمقاعد • وامتلأت المصانع والمتاجر بالعاملات والبائعات • وحطم النساء الحواجز التى كانت تقوم بينهن وبين الرجال فى المسارح وفى الترام وفى كل مكان • فاختفت المقاعد التى جرت العادة على تخصيصها للسيدات بعد ان اصبحن يفضلن مشاركة الرجال • بدأ ذلك كله بعد الحرب العالمية الأولى ، وازدادت حِدّتُه بعد الحرب العالمية الثانية • وتتابعت التطورات فى سرعة مذهلة لم تَدَعْ فرصة للمعارضة • وأعان على اندفاعها جوُّ الثورة

التى تلت الحرب ، والتى كانت تطالب بجلاء جيوش الاحتلال الإنجليزية ، وما كان يوحي به من جرأة وتمرد على كل قديم • وظهرت طلائع ذلك فى التجمع النسائى المشهور ، الذى طاف شوارع القاهرة سنة ١٩١٩ ، فى طريقه إلى دار المعتمد البريطانى ، وكان عدده يربو على الثلاثمائة ، وعلى رأسهن صفية زغلول حرم سعد زغلول باشا زعيم الثورة ، وهدى شعراوى حرم على شعراوى باشا أحد أعضاء وفد مصر الثلاثة الذين نابوا عن المصريين فى مطالبة إنجلترا بالجلاء - وكلتاهما متسميتان باسم زوجيهما : زغلول وشعراوى - على طريقة الإفرنج - وهذا التجمع هو الذى وصفه حافظ ابراهيم فى قصيدته :

خرج الغوانى يحتججْنَ ورُحْتُ أرقُب جَمْعَهُنَّهْ

وتجرأت المرأة منذ ذلك الوقت على المشاركة فى القضايا الوطنية وفى مختلف الميادين الاجتماعية ، وشاركت مشاركة بارزة فى حركة المقاطعة الاقتصادية سنة ١٩٢٢ م •

وغفَلَتْ أعينُ المعارضين من المحافظين عن هذه الخطوات الجريئة التى أضفى عليها جوُّ الثورة لونا من النُّبل حفظها من أن تهاجَم أو تُمسّ • ثم تنبه المحافظون فإذا المرأة ماضية فى استئناف الطريق الذى وضعت قدمها على أوله • فأخذت تؤسس الجماعات وتقيم الحفلات وتعقد الندوات والمحاضرات • وتزعمت هذه الحركة النسائية هدى شعراوي حرم على باشا شعراوى • وتجرأت هذه المتزعمة على مالم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة ، وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث لمندوبي الصحف •

منذ ذلك الوقت أصبح للمرأة قضية حقيقية تناولها الشعر وتناولتها الصحف ، بين مؤيد يشجع السفور والاختلاط بما ينشره من أخبار المرأة فى تركيا بعد الانقلاب الكمالي ، ومعارض ينكر ما يرى من تغير حال المرأة ومن جرأتها على الدين والتقاليد ، وتمردها على سلطة الأب والزوج ، وتقليص الثوب فوق جسدها فى سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون •

وكثرت الاستفتاءات الـمُغرِضة الموجّهة التى كانت تنشرها الصحف والمجلات ، ومجلةُ (الهلال) و (المقتطف) على وجه الخصوص ، فى شئون المرأة المختلفة ، مثل الزواج بالأجنبيات واختلاط الرجال بالنساء ، وما يَحسُن استبقاؤه من عاداتنا الشرقية فى المرأة ، وما يحسُن اقتباسه من الإفرنج . كانت المجلات تعَرِض فى كل واحد من هذه الاستفتاءات رأى بعض مشاهير الكتاب والمفكرين ، الذين تختارهم اختيارا خاصا يحقق ما تقصد إليه من توجيه . وكان عليهم أن يجيبوا على أسئلة محدّدة اختيرت موضوعاتها وكلماتها اختيارا خبيثا ماكرا .

شُغِلت الصحف بمثل هذه الموضوعات ، ودار حولها جَدَل كثير صُوِّر فيه المحافظون فى معظم الأحيان بصورة الرجعي المتزمت الضيق الأفق ، الذى يريد أن يَحْرِم الحياة من مباهجها ليرُدّها إلى كآبة الصحراء وجفاء البداوة . واستعانوا على هذا التصوير بالمسرحيات الهزلية والصُوَر السُّخريَّة والفكاهات المستطرفة المضحكة . وتتبَّع الشباب هذه المعارك . وكان بطبيعة ظروفه وتكوينه وسنّه وثقافته التى يَشيع فيها الغزو الفكرى أمْيَلَ إلى قبول آراء دعاة الحضارة الغربية والنفورِ من آراء المحافظين . وكان ذلك هو الهدف الحقيقى من كل هذه المعارك التى تريد أن تلفِت إليها الأنظار .

فى هذه المعركة قال شكيب أرسلان فى مقال نشرته مجلة (المنار) سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥ م) :

« عند إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م قال أحمد رضا بك من زعماء أحرار الترك : ما دام الرجل التركى لا يقدر أن يمشى علنا مع المرأة التركية على جسر « غلطة » وهى سافرة الوجه فلا أعُد فى تركيا دستورا ولا حرية . فكانت هذه هى المرحلة الأولى . وفى هذه الأيام بلغنى أن أحد مبعوثى مجلس أنقرة ، الكاتب رفقي بك ، الذى كان كاتبا عند جمال باشا فى سورية ، كتب : إنه مادامت الفتاة التركية لا تقدر أن تتزوج بمن شاءت ولو كان من غير المسلمين ، بل مادامت لا تَعْقِد مُقَاوَلَةً مع

رجل تعيش وإياه كما تريد ، مُسْلِماً أو غيرَ مُسْلم ، فإنه لا يَعُد تركيا قد بلغت رقيا ٠ فهذه هى المرحلة الثانية »

« فأنت ترى أن المسألة ليست منحصرة فى السفور ، ولا هى بمجرد حرية المرأة المسلمة فى الذهاب والمجىء كيفما تشاء ٠ بل هناك سلسلة طويلة حلقاتها ، متصل بعضها ببعض ، لابُدّ أن ينظر الإنسان إليها كلِّها من أولها إلى آخرها ٠ فإذا كان ممن يرى حرية المرأة الـمُطْلقة ، فعليه أن يقبلها بحذافيرها .. أما أن نجمع بين حرية المرأة وعدم حريتها ، وأن نطلق لها الأمر تذهب حيث أرادتْ وتضاحك من أرادت ، وتغامز من أرادت ، ثم إذا صبا قلبُها إلى رجل من غير جنسنا ، فذهبت وساكنته ، وكان بينها وبينه ما يكون بين الرجل وزوجته ، أقمنا القيامة ودعونا بالمسدَّس ، وقلنا : يا للحمية ياللأنفة ياللغيرة على العرض ! فهذا لا يكون ٠ وليس من العدل ولا من المنطق أن يكون » ٠

« والنتيجة التى نريدها قد حصلت ، وهى أن سلوكنا مسلك الأوربيين ، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة* فى هذه المسألة ، هذا له توابع ولوازم لابد أن نقبلها ، ولا يبقى معها محل لكلمة (أعوذ بالله) ٠ كلا : لا يوجد هناك (أعوذ بالله) ٠ بل تلك مدنية وهذه مدنية ٠ تلك نظرية وهذه نظرية ٠ فعلينا أن نختار إحدى المدنيّتين أو إحدى النظريتين ، مهما استتبعت من الأمور التى كان يقال فى مثلها عندنا (أعوذ بالله) ٠»

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

---

* القُذّة ريش السهم ٠ والحذو القطع والتقدير على مثال ٠ والمعنى : كما تقدَّر كل واحدة من الريش على أختها وتُقطَع على مثالها ٠

٣٦

المجتمع المختلط

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

تطورت الدعوة إلى المجتمع المختلط الذى يضم الرجال والنساء تطورا خطيرا بعد الحرب العالمية الثانية • فأصبح هذا الاختلاط حقيقة ماثلة شائعة فى معاهد العلم وفى الإدارات الحكومية وفى المصانع وفى الشركات وفى الأندية والمجتمعات • وأصبح الاتجاه الذى يبرر هذا التطور بالنصوص الإسلامية بعد تحريفها وإفساد تأويلها ظاهرة بارزة • ولم يكن فى هذه النصوص جديد • فقد كانت كلُّها مما أثاره قاسم أمين فى كتابه (تحرير المرأة) • ولكن أصحاب هذه الدعوات لم يكونوا يرون بأسا فى تكرار ما يقولون ، لأنهم يعرفون أن جيلا جديدا يسمعها لم يكن قد سمعها من قبل • لم يكن فيما يرددون جديد • ولكنّ الجديد الخطير هو أن الصحافة وكلَّ أجهزة الإعلام أصبحت جميعا فى جانب هذا التطور ، لا تنشر إلا ما يؤيده ويؤكد صحته ويُسفِّه رأي من يعارضه • وبذلك تحقق البروتوكول التاسع من (مقررات حكماء صهيون) الذى جاء فيه :

« ولكي نحطم التنظيمات التى أقامها غيرُ اليهود عاجلا ، فإننا قد دعّمناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتها • فقد كانت الأجهزة تسير فى الماضى بنظامٍ صارم ولكن عادل • فأحللنا محله نظاما متحررا غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية وتحكّمنا فى إدارة الصحافة وفى نمو الحرية الفردية • والأهم من ذلك كله إشرافنا على التعليم ، وهو المعوَّل الرئيسى للحياة الحرة » •

ولست أرى داعيا لإيراد النصوص القرآنية التى تعارض دعوى الاختلاط وتنقض مزاعم أصحابه فهى مشهورة معروفة • لذلك أكتفى بالإشارة إليها فى سورة النساء

فى الآيات ٢٥ ـ ٢٨ ، وفى سورة النــور فى الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٦١ وفى سورة الأحزاب فى الآيات ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٩ ٠

والآيات فى جملتها صريحة الدلالة فيما تأخذ به المسلمين والمسلمات ٠ فهى تأمرهم :

١ ـ بستر جسم المرأة كلّه ـ ومنه شعر الرأس ، وتجنب إبداء المفاتن والتزين أمام الغرباء من غير المحارم ٠

٢ ـ بتجنب التسكع فى الطرقـات واستعراضهـا فى غـير حـاجـة ، وبالاستقـرار والاكتنان فى البيوت ٠

٣ ـ بتجنب التحدث إلى الرجال ٠ فإذا دعت إلى ذلك ضرورة فليكن بين الرجل والمرأة ستار ٠ وليكن الحديث أميل إلى القصد ، وعلى قدرما تقضى به الضرورة ٠

٤ ـ بغضّ البصر عند التقائه بالرجال ٠ والرجالُ مأمورون بمثل ذلك عند التقاء نظرهم بالنساء ٠

٥ ـ بالزواج لمن استطاعه ٠ وبالصبر وضبط النفس لمن أطاقه ٠ وبالزواج من الإماء لمن لا يطيق الصبر ولا يجد مهر الحرائر ٠ أما اتخاذ الخليلات ومقارفة البغايا فهو محرَّم يحذِّر منه الإسلام ٠

٦ ـ الخطاب الموجَّه إلى نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى سورة الأحزاب ليس خاصا بهن ، فهو معلَّلٌ بأنه سبيل الطهارة والبعد عن مَظانِّ الريبة وإطماع مرضى القلوب ٠ ولا شكَّ أن الـمُسْلِمات من عامة الناس أبعد عن العصمة وأدنى إلى إطماع مرضى القلوب من نساء النبى أمَّهاتِ المؤمنين ٠

هذه القواعد الواضحة لا تدع مجالا للتوفيق بين إسلام المسلمين وبين مذاهب دعاة المجتمعات المختلطة فى شتى صورها وأشكالها ٠ وذلك هو حكم الدين لمن أراد أن يقيمه ٠ وتلك هى حدود الله لمن أراد أن يلتزمها ٠

أما الذين لا يلزمون أنفسهم حدود الله ولا ينقادون لما أمر به فلنا معهم حديث آخر ٠ يُردِّد المتفرنجون من المسلمين ما تزعمه بعضُ الدراسات النفسية ، والفرُويدّيةُ

منها على وجه الخصوص ، من أن الاختلاط يهذب الغريزة الجنسية وينفّس عن الكبت الذى يورثه الحجاب • ولهؤلاء المتفرنجين نقول :

إن لله فى خَلْقِهِ سُنَنا لا يَشِذّ عنها شىء مما خلق • ومن سننه الكبرى فى خَلْقه أنْ جعل فى كل ما خلق ذكرا وأنثى (ومن كلِّ شىءٍ خَلَقْنا زوجَيْنِ لعلكم تَذَكّرون ـ الذاريات ٤٩) نجد ذلك فى الحيوان وفى النبات وفى الظواهر الطبيعية كالكهرباء والمغناطيس • ونجده فى الكرة الأرضية نفسها ، فأحد قطبيها سالب والآخر موجب • ونجده فى أدق دقائق الخَلْق وألطف وحداته وهى الذّرة • و (سبحان الذى خَلَقَ الأزواج كلَّها مما تُنْبِت الأرضُ ومن أنفُسِهم ومما لا يعلمون ـ يس ٣٦) • ومن طبيعة الأزواج فى كل هذا الخَلْق أن تتجاذب • فالذكر والأنثى من النوع الواحد يتجاذبان حتماً حسب ما بنى الله عليه طبيعة كلٌّ منهما ، وحسب ما هَدَى إليه من فطرة • وسبحان الذى (أعْطَى كلَّ شىءٍ خَلْقَه ، ثم هَدَى ـ طه ٥٠) • فَميْل المرأة للرجل وميل الرجل للمرأة إذَنْ هو جزء من قانون عام اقتضته حكمة الله ، لا سبيل إلى تجنبه أو إنكاره • وليس من المطلوب ولا هو مما يُرغَب فيه ويُسعَى إليه أن يخفّف هذا الميل أو يُعمَل على إضعاف حِدَّته •

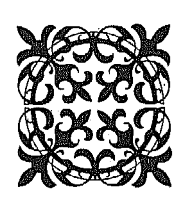
ثم إن اطلاق الأمر فى تجاور الرجل والمرأة واختلاطهما لا يخلو من أحد أمرين • فهو إمّا أن يؤدي إلى إثارة الشهوة فى الجنسين وزيادة حدتها ، ، أو يؤدى إلى إضعافها وكسرْ حدّتها • فإذا كان الاختلاط مؤديا إلى تجاذب الذكر والأنثى على ما رُكب فى طبيعة كل منهما ، ولم تكن هناك حدود لهذا الاختلاط أو نظام مرسوم ، تحوّل الأمر إلى فوضى لا ضابط لها • فيختلط النسب ، وتقع الضغائن والأحقاد بين الآباء والأزواج وبين من اعتُدِي على أعراض بناتهم ونسائهم • وبين المتنازعين والمتنازعات والمتنافسين والمتنافسات على العشيق الواحد والعشيقة الواحدة • أمّا إذا كان الاختلاطُ مُضعِفا للشهوة يكسر حِدّتها ـ وهو فرض غير بعيد الاحتمال ، لأن إلْفَ النفس للشىء وطولَ اعتيادها إياه يُضعف أثره فيها ـ فذلك هو البرود الجنسى عينُه •

وهو مرض يلتمس المصابون به العلاج عند طبيب • ثم إن البرود الجنسى متفاوت الدرجات • وهو في غير الحالات المَرضيّة الشديدة التى تعرّض النوع البشرى للفناء يستتبع نتيجتين خطيرتين : ضَعْفَ النسل وتخلّفه وانحطاط خصائصه ، وانتشارَ الشذوذ واستفحالَ دائه • أما النتيجة الأولى فهى ترجع إلى أن حِدّة الشهوة وقوتها سبيلٌ إلى تحسين النسل وداعية إلى إبراز أحسن خصائصه وأفضل صفاته • كما أن فتور الشهوة وبرودها سبيل إلى ضعف النسل وداعية إلى تدهور خصائصه وانحطاط صفاته • وذلك ما يؤيده علماء الوراثة فيما ينبّهون إليه من خطر زواج الأقارب ومضارّه ، وإن كان تعليلهم لذلك مبنيًّا على وجود ما يسمونه (الجِينَات) التى تورِّث الخصائص الخِلْقية والخُلُقية المختلفة • ويؤيد ذلك تأييدا قويا تحريمُ الشريعة الإسلامية زواج أخوات الرضاعة • فمن الواضح أنه مبنى على اعتبار الغرباء الذين لا تربطهم قرابة الدم ممن تجاوروا وازداد إلْف أحدهما للآخر فى حكم أقرباء الدم • هذه حقيقة معروفة تقطع بها المشاهدة وتجاربُ الأجيال المتعاقبة ، وتؤيدها الشرائع الثابتة • وهى تشمل الإنسان والحيوان على السواء • ومن مظاهر تطبيقها فى الحيوان إبعادُ الذكور عن الإناث فى حظائر تربية الطيور والحيوان وحَظْر السماح باختلاطهما إلا عند اللِّقاح • ومن علامات صِحَّتها فيما أقدِّره انحطاط خصائص الجنس البشري فى الهمج من العراة الذين لا يزالون يعيشون فى المتاهات والأدغال على حالٍ تقرب من البهيمية ، فإنهم لا يأخذون طريقهم فى مَدَارج الحضارة إلا بعد أن يكتسوا • ويستطيع المُراقب لحالهم فى تطورهم أن يلاحظ أنهم كلما تقدموا فى الحضارة زادت مساحة الأعضاء الكاسية من أجسادهم • كما يستطيع أن يلاحظ أن الحضارة الغربية فى انتكاسها تعود فى هذا الطريق القهقَرَى درجة درجة ، حتى تنتهى إلى العُرْى الكامل فى (مدن العراة) ، التى أخذت فى الانتشار بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم استفحل داؤها فى السنوات الأخيرة •

أما النتيجة الثانية الخطيرة للبرود الجنسي وهي انتشار الشذوذ واستفحالُ دائه فهي

راجعة إلى أن الفتور الناشىء عن إلْف المخالطة يحتاج فى تنشيطه وإثارته إلى الخروج عن المألوف والشذوذ عن السُّنَن • وذلك ما يؤذن بالخراب ، لأنه من وجوه الترف التى قال فيها تعالى (وإذا أردْنَا أن نهْلِك قرية أَمَرْنا مُتْرفَيها ففَسقُوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميرا) ، ولأن الدَّمار يحُل لا محالة على من يخرِق سُنَن الله ، لأنها أقوى وأبقى ممن يريد تعطيلها أو تحويلَها •

والسلام عليكم ورحمة الله •





المرأة والأعمال العامة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

زعم أعداءُ المرأة المتظاهرين بالدفاع عنها بعد أن أخرجوها من بيتها الذى زعموه سِجْنا وسموا ذلك تحريرا ، أن حريتها لا تكمل إلا بمنحها حق العمل مع الرجل سواءً بسواء • وتسربت المرأة إلى ميادين محدودة من العمل فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى • وكان الذى يجرى فى تركيا بعد الانقلاب الكمالي يشجِّع على ذلك ويُعين عليه ، باعتباره وجهاً من وجوه النهضة كما يزعمون • ثم استفحل الأمر بعد الحرب العالمية الثانية فأُقحمت المرأةُ على كل ميادين العمل بلا استثناء ، وشاركت فى الحكم وفى التشريع إلى أعلى درجاتها ، بعد أن مُنِحت حق المشاركة فى الانتخاب ، وفى تمثيل الشعب فى المجالس النيابية ، وتولت الوزارات • ولم يلبث هذا التقليد أن انتشر فى كثير من البلاد العربية • واتخذ شكل الطفرة المفاجئة والانقلاب الأهوج فى بعضها • وراحت بقية البلاد التى لم تلحقها الموجة تعانى من صدِّ تيارها الطاغى فى مواجهة الزاحفين •

ويستطيع الدارس المتأمل أن يرى بوضوح فى كل ما يجرى أن المرأة لا توضع حيث تدعو الحاجة ـ صحيحةً كانت أو مزعومة ـ إلى أن توضع • ولكنها توضع لإثبات وجودها فى كل مكان ، ولإقحامها على كل ما كان العقل والعرف ينادى بعدم صلاحيتها له • فليس المقصود بتوظيفها سدَّ حاجة موجودة ، ولكن المقصود هو مخالفة عُرْفٍ راسخ ، وتحطيمُ قاعدة قائمة مقررة ، وإقامةُ عُرْفٍ جديد فى الدين وفى الأخلاق وفى الذوق ، وخلقُ المبررات والمقوّمات التى تجعل انسلاخنا من إسلامنا وعروبتنا أمرا

واقعا ، كما تجعل دخولنا فى دين الغرب ومذاهب الغرب وفِسْق الغرب أمـرا واقعـا كذلك ٠

والحجة الأولى عند أنصار هذه الدعوة أن المرأة نصف المجتمع ٠ وأننـا حـين نَحرمُها من العمل نعطِّل نصف القوى العاملة ٠ والحجةُ باطلة من وجهين : أحدهما أنها قائمة على افتراض أنها لا عمل لها فى البيت يشغل كل وقتهـا ، وهـو غـير صحيح ٠ وثانيهما أن حُجّتهم لا تقوم إلا بعد أن نقضي على البَطالة فى الرجال قضاءاً كاملا ٠ وإذا قلتُ البَطالة فالمقصود بها البطالة فى كل صورها الصريحة والمقنَّعة ٠ والبطالة المقنَّعة أكثر انتشارا من البطالة الصريحة ٠ وأبرز صورها زيادة العمالَة عن حاجَة العمل الحقيقية ، والاشتغالُ بالأعمال التافهة ، واحترافُ الحِرَف غيرِ المفيدة ٠ بل الضارةِ فى كثير من الأحيان ، والإهمالُ أو التراخى فى القيام بواجبات الوظيفة ، أو الانزواءُ وتركُ العمل جملةً اعتماداً على وجوهٍ للرزق ضيِّقة أو واسعة ، تجىء بغير عمل من طريق الصدقات أو الأعطية والإعانات ٠

ومن المغالطات المشهورة التى ابتدعها قاسم أمين وتابعه فيها كثير من الناس أنهم يقولون : إن بين النساء نابغات . وبينهن عانسات . وبينهن من فقـدت الـزوج والعائل . فلماذا لا يشارك هؤلاء فى الأعمال العامة فى الحياة ؟ والواقع أن الإسلام لم ينكر على المرأة حقها فى السعي الشريف للرزق إنْ دعتهـا إلى ذلك ضرورة ٠ فالإسلام سَمْح ٠ وقد أباح للضرورة أشياء كثيرة ، حتى الميتة ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله ٠ فرفع الإثم فيها عن المضطر فى أكثر من موضع من القرآن الكريم (البقرة ١٧٣ ـ المائدة ٣ ـ الأنعام ١٤٥ ـ النحل ١١٥) ٠ بل رفع الإثم عمن أُكرِه على الكفر وقلبُه مطمئن بالإيمان (النحل ١١٦) ٠ واشتراكُ من اشترك من الـمُسلمات فى الجهاد ، ممن يتصيّدون أسماءهـن في كتـب التـاريخ ، هو من باب الاستثناء الذى تدعو إليه الضرورة ٠ وهو فى كل الأحوال لا يتجاوز حدود الأعمال

التى تلائم المرأة كالتمريض والخدمة خلف صفوف القتال • ومصدرُ الخطأ والخلْط فى ذلك كله ناشىء من وضع الاستثناء والشذوذ موضع القاعدة والأصلِ من ناحية ، واتخاذِ أعمال الأفراد حجَّةً على الشرع نفسه من ناحية أخرى •

ومن أكبر ما يشْغل المتزعمين لهذه القضية الخاسرة أنهم يجعلون أكبر هَمِّهم مصروفا إلى إثبات أن المرأة تستطيع القيام بأعمال الرجال • وأنها إنسانٌ مثلُه لا فرق بين عقلها وعقله • ويجُهدون أنفسهم فى حصر الأمثلة التى تؤيد زعمهم ممن نبغ من النساء فى مختلِف العصور ، من المسلِمات وغيرِ المسلمات • وهو من الشذوذ الذى يُراد وضعُه موضع القاعدة • وليس هو فى كل حالٍ لُبَّ المشكل وصميمَه ، ولا هو بالمقياس الصحيح فى تقدير الخطأ والصواب فى هذا الأمر • ولكنَّ لُبَّ المشكل وصميمَه هو : هل يؤثر اشتغال المرأة بعمل الرجل على إتقانها لعملها النسوي الأصيل ؟ من الواضح أن عمل الأنثى الأول الذى خُلِقت له هو النسل وحفظ النوع • لأن تركيب الذُّكران العضوي لا يسمح لهم بحمل الجنين ولا بإرضاعه • وليس عَبَثاً أن خَلَقَ الله الذكر والأنثى • ومن الثابت أنّ إرهاق المرأة بالعمل يترك أثرا فى مزاجها وفى أعصابها • ومن الثابت أيضا أن هذا الأثر ينتقل إلى جنينها فى حالة الحمل ، كما ينتقل إلى طفلها فى حالة الإرضاع • بل إن بعض علماء الوراثة يتحدثون عن وراثة الصفات والأعراض الطارئة والغريبة على الأب والأم كليهما من آثار المخالطة فى أثناء العُلوق والحمل ، ثم إن المرأة محتاجة بعد ذلك إلى أن توفَّر لها الفرصة الكاملة لملازمة طفلها ملازمة تسمح بأن يُصنَع على عينها جسماً وعقلاً وخُلُقا ، لكي تغرس فيه العادات الفاضلة وتُجنِّبَه ما قد يَعْرِض له أو يطرأ عليه من عادات قبيحة • ومثلُ هذا لا يتأتَّى بالأمر أو النهى مَرّةً أو مَرَّات • ولكن لا بُدَّ فيه من المراقبة الدائمة والإشراف القريب على تكرار الفعل حتى يرسَخ فى نفسه ، واليقظةِ على الزجر مرة بعد مرات عن بعض الأفعال الأخرى ، حتى يُحالَ بينها وبين الرسوخ

فى نفسه • وذلك كله لا يُغْنِى فيه الخَدَم ولا دُور الحَضانة غَنَاءَ الأم • لأن الإخلاصَ فيه والحرصَ على ابتغاء الكمال من كل وجهٍ لا يتوافر فى أحدٍ توافره فى الأم • والقولُ بأن كلَّ صلة الأم بولدها تنحصر فى الحمل والوضع هو نزولٌ بالإنسان إلى مرتبة الحيوان • فالإنسانُ يمتاز بطول حضانته لأولاده • وهى حَضانة لا تنحصر فى توفير الغذاء والحماية كما هي فى سائر الحيوان ، ولكنها حضانة خلقية وعقلية أيضا فى الإنسان • وذلك من أهم الأسباب فى تقدم البشرية ، لأنه يورِّث الجيل التالى تجارب الأجيال السابقة ، بما يمكِّنه من متابعة الشوط ، وتوفير الوقت والجهد الذى يضيع فى تكرار التجربة •

ولو شئنا لقُلنا بعد ذلك كله لأعداء المرأة وأعداء أنفسهم ممن جرى عُرْف الصحف والكُتّاب فى هذه الأيام على تسميتهم (أنصار المرأة) : إن المرأة لا تصلح للكد وممارسة الأعمال العامة صلاحية الرجل • لأنها بحكم تكوينها تحيض أسبوعا فى كل شهر ، وهى حالة تكاد تكون مرضا عند بعض النساء ، تخرجها عن مألوف عاداتها • وهي بعد ذلك إن حَمَلَت ظلت تعاني فى الشهور الأولى من حالة (الوَحَم) وما يلازمه من أسقام • ثم إنها تعاني فى الشهور الأخيرة من ثقل الحمل الذى يُقيِّد حركاتها حتى يكاد يشلها ، فإذا لم تكن المرأة العاملة متزوجة كانت مشغولة بالبحث عن الزوج ، معرّضةً للزلل والتفريط عند كل بارقة من الأمل فى الظَفَر به • وهى لا تَعدِل عن ذلك ولا تنصرف عنه إلا لِعِلَّةٍ قد تكون شرا من البحث عن الزوج وأخطر •

ثم إن حياتنا الحديثة تقوم فى كل شئونها ومختلِف نواحيها على التخصص الدقيق الذى يتيح دِقّة المعرفة وحِذْقَ المَرَانة لكل عاكفٍ على فرعٍ بَعْينه • والتربيةُ الحديثةُ تحاول أن تكتشف مواهب الأطفال والصبية لتوجِّه كلا منهم فيما يلائم استعداده وتكوينه • فلماذا نطبّق هذين المبدأين ـ التخصصَ والعملَ المناسب ـ فى كل شىء ، ونأبى تطبيقهما فى الرجل والمرأة ؟

ويستطيع كل ذى لُب وبصيرة أن يدرك آثار الفشل الذى حاق بتجارب المجتمع الأوربي والأمريكي فى هذه الناحية ، مع أن هذه الآثار لم تبلغ بعدُ منتهى مداها ، ولا يزال سائر عقابيلها فى الطريق • فهذا الجيل من التائهين والضائعين المحطمي الأعصاب والـمُبَلْبَلي الأفكار والقلقي النفوس ، وهذه النسبة الآخذة فى الارتفاع ـ حسب إحصاء الغربيين أنفسهم ـ للانحراف والشذوذ بكل ضروبه وألوانه ، هذه الظواهر كلها هي من آثار التجربة التى خاضها الغرب فى المرأة • لأن هؤلاء جميعا هم أبناء العاملات والموظفات ، الذين عانوا من إرهاق أمهاتهم وهم فى بطونهن ثم تعرضوا لإهمالهن بعد ان وضعنهم ، ثم لم يجدوا ما يردعهم عما تدعوهم إليه النفس من شطط ، فى ظل الأجواء التى تقدس الحرية فى كل صورها دون حدود • وقد كان هتلر على حق حين هداه تفكيره إلى حل كثير من مشاكل مجتمعه الألمانى عن طريق عودة المرأة الى البيت •

والعجيب من أمر هذه القضية الموهومة أن المرأة لم تقم فيها بالخطوة الأولى • ولم تحمل أعباءها فيما تلا من خطوات ، ولكنّ الرجال هم الذين قاموا بهذا العبء من بدئه حتى نهايته ولا يزالون • بل هم يعارضون الآن أشد المعارضة ما يبديه بعض العقلاء من الدعوة إلى مراجعة التجربة الفاشلة وعودة المرأة لميدانها الأصيل وهو البيت ، ويهاجمون الداعين إليه والداعيات أشد المهاجمة ، ويطلقون على الدعوة ـ استخفافا بعقول الناس ـ (العودة إلى عصر الحريم) • والقائمون بذلك والمتحمسون له أحد شخصين : مفتون بحضارة الغرب ، أعمته الفتنة عن اكتشاف عيوبها ، ثم لم يعصمه إيمان يشرح الله معه صدره للإسلام وتشريعه ، وطالبُ مُتعةٍ من غير وجهها الحلال وطريقها المشروع ، لا يريد ان يَحْرِم نفسه متعة الحديث والنظر ، والأُنس والسمر ، ولا أجاوز ذلك الى ما وراءه •

والظلمُ فى القضية كلها حائق بالمرأة • كانت ريحانة تُشَم فأصبحت مُشكِلا يتطلب الحل • وكانت عِرْضاً يُصان وأمانةً تحُفظ فأصبحت عِبْئاً يضيق به الأب والأخ

ويتحتم معه على المرأة أن تعمل لتعيش · وماتت المروءة التى كانت تدفع إلى القيام بحقها ، والغيرةُ التى كانت سببا فى المحافظة عليها · وأصبح القانون يُلزمها بالعمل فى النظام الشيوعى · وأصبح الواقع يلزمها به فى النظام اللِّبرالى · وأصبحت التى لا تعمل لا تجد اللقمة ولا تجد الزوج · ولئن كانت المرأة قد خاضت معركة ظفرت فيها بحق العمل · فما أظن أن الوقت يطول قبل أن تخوض معركة أخرى أشق وأصعب للظفر بحق العودة إلى البيت ·

وقد لا تكون هناك نصوص صريحة فى القرآن أو السُّنَّة تمنع المرأة من العمل فى خارج البيت لكسب عيشها حين تدعو إلى ذلك ضرورة · ولكنّ من المؤكد أن اتخاذ هذه القاعدة أصلا من أصول التنظيم الاجتماعى يخالف روح الشريعة ويناقض كثيرا من نصوصها ويتعارض مع كثير من شرائعها وحدودها تعارضا صريحا · فهو يدعو إلى إعادة النظر فى التشريعات الإسلامية التى تتعلق بقوامة الزوج وبالميراث وبالنفقة ، لأنها جميعا مبنيّةٌ على أن الرجل هو الذى يعمل ، وهو المكلف بالإنفاق · ويجب أن يكون واضحا أن قوامة الرجل على المرأة لا تقتضى تفضيله عليها فى الدين أو الدنيا · ولكنّ هذه القِوامة قاعدة تنظيمية تستلزمها هندسة المجتمع واستقرارُ الأوضاع فى الحياة الدنيا · ولا تَسْلم الحياة فى مجموعها إلا بالتزامها · فهى تُشبه قوامة الرؤساء وأولي الأمر ، التى لا تستلزم أن يكون الرؤساء أفضلَ من كل المحكومين · ولكنها مع ذلك ضرورة يستلزمها المجتمع الإنسانى ، ويأثم المسْلِمُ بالخروج عليها ، مهما يكن من فضله على ولىّ الأمر فى العلم أو فى الدين ·

والسلام عليكم ورحمة الله ·



٢٨

الأدب فى ميدان الصراع بين القديم والجديد

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

تعددت وجوه أزمة العصر وتباينت مظاهرها وتشعبت ميادينها • وكان من بين هذه الميادين ميدان قلما التفت عامة الناس إلى حقيقة خطورته وقلما قدروها حق قدرها ، وهو ميدان اللغة والأدب • فى هذا الميدان جرت معارك وصراعات اتخذت فى أكثر الأحيان عنوانا ظالما للتراث وللداعين إلى المحافظة عليه وهو (القديم والجديد) • أطلقوا على كل ما يتصل بتراثنا من قيم دينية وخلقية وأدبية اسم (القديم) • وفى مقابل ذلك سمَّوا كل طارىء مُستجلَب مما شاع عند الغرب ، ومما رثَّ وبَلى من أنماطه فى بعض الأحيان ، باسم (الجديد) • والقديم يوحى بالبِلى وبالهَرَم وبالحاجة إلى الترقيع والترميم والإصلاح والتقويم • بينما كان اسم (الجديد) يوحى بالبهجة والبشاشة والرُّواء والنشاط وتدفق الشباب • لذلك كان العنوان وحدَه داعيا لصرف الشباب عن كل ما يتصل بالتراث ، وإقباله على كل بِدْعٍ مُستطرَف غريب •

كانت المعارك التى دارت فى هذا الميدان ذاتَ شِقَّين ، أحدُهما يتصل بأساليب الأدب وموضوعاته ومذاهبه ، والآخر يتصل بلغته • ولنبدأ حديثناً بالجانب الذى يتصل بالأدب •

شُغِف الناس فى هذه الفترة بالكلام عن أدباء الغرب ومفكري الغرب وساسة الغرب ، حتى أصبح العلم بتاريخهم وآدابهم هو وحدَه آية التبحر فى الثقافة ، وأصبح الاستشهاد بالقول المنسوب لأحد الغربيين ، أيٍّ واحد منهم ، هو فَصْلَ الخطاب ، وهو الحجة المُسْكِتة التى ينقطع بها جدل المختصمين • وأوشك الأمر أن يبلغ بالناس حد المرض ، حتى لقد ضاق به بعضُ دعاة الجديد أنفسهم • وهذا هو محمد عبد الله عنان يضع يده على موطن الداء ، منبها ومحذرا ، فيقول :

« شُغِف فريق من كتابنا الأحداث بالكتابة فى الأدب الغربي وأطواره ومناحيه شغفاً يملك عليهم كل شيء • وترى لهم فى كل يوم حديثا عن (الدرامة) و (الرومانتسِزْم) و (المذهب الواقعي) ، أو عن (برناردشو) و (أوسكار وَايْلد) و (ترجنيف) (دِسْتويفسكي) و (إبْسن)) ، وهكذا ، فى سلسلة حافلة لا تنتهى من موضوعات الأدب الغربى وأقطابه ، فى كل عصر وأمّة ... وهؤلاء الذين يطربهم رنين الأسماء الغربية والموضوعات الغربية ، ويقفون أوقاتهم على درسها وتناولها ، هم أقلُّ الناس تزودا بآداب اللغة التى يخُرجون بها مباحثهم ، ويزعمون أنهم يحاولون إحياءها وتجديدها ، بما يكتبون عن (الدرامة) و (الرومانتسِزْم) وعن (ترجنيف) و (برناردشو) • وهم أكثر الناس جهلا بما يموج به تراث العربية من كنوز البيان والأدب ، وبما يَغَصُّ به ثَبْتُ كتّابها ومفكريها من الأساتذة فى كثير من فنون التفكير والأدب • وفيها أسماء أوفرُ رنينا وأحق بالدرس من كثير ممن يُشغَفَ اليومَ كتّابنا الفتيان بدرس شخصياتهم واستيعاب آثارهم .... وقد يُعنَى فريق من كتّابنا الشبان ببعض المواضيع الجدّية ويكتب فيها • ولكن هذه العناية لا تصطبغ أبداً بصبغة عربية فى أيٍّ من النواحى التى تقصدها • فهم إذا كتبوا فى التاريخ كتبوا عن الثورة الفرنسية ، أو الوحدة الإيطالية ، أو نابليون ، أو كرامْويل ، وإذا قصدوا الاجتماع والسياسة كتبوا عن مِكْيافِيللىّ ومونْتِسْكيو • وإذا كتبوا عن الاقتصاد كتبوا عن أمم ومسائل غريبةٍ محضة • وهكذا » •

ويختم الكاتب مقاله بأن يطلب تحرير حياتنا وأدبنا من النزعة الجديدة التى تريد أن تقطع حاضر مصر عن ماضيها ، وأن تجعل دراسة مصر مقصورة على هذا العهد الأخير ، والتى ترمي « إلى صبغ تاريخ هذا العصر بصبغة معينة ، يوحَى بها اليومَ إلى أقلامٍ مصرية وغربية ، وتُفرَض اليومَ على طلبة المدارس » •

وهذا هو سامى الجريدينى ـ وهو معدودٌ فى المتطرفين من أصحاب الجديد ـ يَرُدُّ على طه حسين حين هاجم (شوقى) وانتقص من قدره ، ناعيا عليه تقصيره فى معرفة

الأدب الفرنسى الجديد والفلسفة الفرنسية الجديدة • فيقول ، متسائلا : هل يصح لشاعرٍ عربى أن يتخذ الأدب الفرنسى معيارا لشعره ؟ وهل يجوز لناقدٍ فرنسى مثلا أن ينتقص من شعر (بودْلير) لأنه لم يتثقف بالثقافة الإنجليزية الممثلة فى (كِبْلِنْج) وفى (برناردشو) ؟ ثم يبيِّن أنه لا ينبغى أن يُطلب من الشاعر إلا أن يكون على حظ من الثقافة العامة • وليس يجوز أن يطالَب بعد ذلك بالإغراق فى التخصص • ثم يقول :

« ونحن لا نفهم مثلا أعلى للشعر إلا المثلَ الأعلى للأمة التى يقال بلسانها الشعر • فالشاعر الذى يتجرد عن مثل أمته الأعلى ، ويتفحّص مثلا أعلى فى غير أمته ، قد يُعَد من كبار الفاتحين ، ولكنه لا يُحسَب فى عِداد عظماء الشعراء » •

وكانت المعركة عند مصطفى صادق الرافعى فى حقيقة أمرها هى معركةً بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وبين الذين عادوا من أوربا وقد فتنهم بريقها ، فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفّرون الناس منه • ويشبّه الرافعى أنصار الجديد برجل اسمه أبو خالد النميري ، تروى كتب التاريخ أنه كان قد وُلد فى البصرة ونشأ بها فى القرن الثالث الهجري،، ثم خرج إلى البادية فأقام بها أياما يسيرة ، وعاد بعد ذلك يتجافى فى ألفاظه ويتكلف لغة الأعراب ، حتى لقد يُروَى انه رأى الميازيب على سطوح الدُّور فأنكرها وقال : ما هذه الخراطيم التى لا نعرفها فى بلادنا ؟ والرجلُ إنما ولد فى البصرة ونشأ بها ولم يُقم فى البادية إلا أياما • ذلك هو مَثَل أنصار الجديد عند الرافعى « فتعرف منهم أبا خالد الإنجليزي ، وغيرَهم ممن أجازوا إلى فرنسا وإنجلترا فأقاموا بها مدة ، ثم رجعوا إلى بلادهم ومَنْبتهم ينكرون الميراث العربي فى لغته وعلومه وآدابه ، ويقولون : ما هذا الدين القديم ؟ وما هذه اللغة القديمة ؟ وما هذه الأساليب القديمة ؟ ويمّرون جميعا فى هدم أبنية اللغة ونقض قِوامها وتفريقها • وهم على ذلك أعجزُ الناس عن أن يضعوا جديدا أو يستحدثوا طريفا أو يبتكروا بديعا » •

وينقل الرافعى من إحدى الصحف العربية التى تصدر فى (طنجة) ما يصوِّر به مبلغ كيد الاستعمار للإسلام فى لغته • وذلك هو قول هذه الصحيفة فى تاريخ الكعبة :

« زيارة الكعبة المعظمة فريضة على كل مسلم ومسلمة • ولو عندهم استطاعة صحية ومالية • ومن مناسك الحج : سبع مرات طواف حول الكعبة • كل عام فى المحل المقدس المذكور يجتمع ٢٠٠,٠٠٠ من المؤمنين والمؤمنات هم الحجاج الكرام ، لابسين كلهم كسوة بيضاء ، وسامعين الخطبة لمفتى الأنام فى جبل عرفات ، لبيك اللهم لبيك • الكعبة مبنية من طرف إبراهيم خليل الله ، ولكن بمرور الدهر والأزمان وبتأثير سيلان الأمطار قد خربت مرارا • ولكن تصلحت من موادها القديمة وأحجارها الابتدائية • وحجر الأسود موضوعة بمحلها بيد المبارك المحمدية ... نظرا للتواريخ القديمة إن ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا إسماعيل • ومن المعاني والمعالي ... زيارة بيت الله المقدس أهم المادة هى اجتماع مسلمين العالم فى كل سنة فى الأراضى المقدسة الحجازية بتأييد الوَلاَ والمخالصة بين عالم الإسلامي » •

والرافعى يعجب لعجمة الكاتب « مع انه يكتب كلاما لم يبق منه معنى ولا لفظ ولا صيغة إلا وردت فى الكتب المختلفة بأفصح عبارة وأبلغ أسلوب ، بل هو من بعض دين ذلك الكاتب » •

ويروى شكيب أرسلان فى هذا الصدد قصة غريبة عن أحمد فارس الشدياق تصور محاربة الاستعمار للغة العربية وأساليبها الأصيلة • ذلك أنه كان يعرِّب التوراة وهو فى إنجلترا • فكان يقف على الترجمة العربية قسيس إنجليزى تعلَّم شيئا من العربية ، فكان كلما رأى للشدياق جملة تُشتمّ فيها رائحة الفصاحة مسخها ، واستبدل بها جملة ركيكة • فكان الشدياق يَعْجَب من أمره ومن قلبه العالي بالساقط ، والجيد بالرَّذْل ، تعمُّدا ، ويصرح بأنه إنما كان يتوخى بذلك إبعاد الكلام عن شبه القرآن • ويخلُص أرسلان من هذه القصة إلى أن هذه الفئة من المستترين خلف الدعوة إلى التجديد « لا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب منها القرآن .. القرآن » •

وكان من بين ما اتجه إليه أصحاب الجديد فيما استحدثوه فى برامج التعليم إهمالُ أدبنا القديم وتوجيهُ أكثر العناية إلى الأدب الحديث المعاصر ، بل التافِه منه فى الأعم الأغلب ، وتجنبُ ما كان منه على منوال القديم جزالةً وروعةً وفخامةَ أسلوب واحتفالاً بالمعانى الكبار . وأضافوا إلى ذلك اهتمامَ كل بلد من بلاد العرب بأدبائه وشعرائه ومفكريه على وجه الخصوص ، مما يوجد لونا من العصبية الإقليمية فى الدراسات الأدبية ، تفرّق العرب والمسلمين فيما كانوا يجتمعون عليه من الإلمام بتراثٍ أدبى مشترك يتمثل فى شعراء القرون الأربعة الأولى من الإسلام ، التى تنتهى بالمتنبى . وربما امتدت إلى المَعَرّى بعد ذلك بقليل .

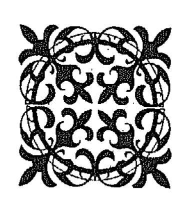
وكانت القصة من أبرز ما استُحدِث من فنون الأدب بعد الحرب العالمية الأولى . ولم تلبث أن طغت على سائر فنون الأدب ، حتى أخملت الشعر أو كادت . ورحبت بها الصحف على اختلاف ألوانها ، وجعلها الكثير منها بابا من أبوابها الثابتة ، استجابةً لرغبة جماهير القراء ، الذين أقبلوا عليها إقبالا شديدا . وساعد على رواجها بروزُ المسرح فى صدر هذه الفترة ، ثم ظهور الخيالة (السينما) وتقدم صناعتها . وأعان على هذا الرواج سهولة تذوق القصة ، إذ أن فهمها والاستمتاع بها لا يكدّ ذهن القارىء ، ولا يحتاج لإعداد خاص أو تثقيف طويل كما هو الشأن فى سائر الفنون الأدبية ، والشعرِ منها بخاصة . وهى مع ذلك أكثر ملاءمة للشباب ، لأنها أقدر على توفير الأجواء الحالمة التى تلائم سن المراهقة خاصة . مما يجعلها أقوى الفنون الأدبية تأثيرا عليه وأخطرها فى توجيهه . وقد زاد فى خطورتها سهولة تناولها وصعوبة التمييز بين الجيد منها والردىء على غير العارفين من العلماء وناضجي التفكير . فما أسهل أن يملأ الكاتب ، أىُّ كاتبٍ ، أىُّ حاملِ قلمٍ ، صفحاتٍ وصفحات ، وكُتُبا وكُتبا ، بقال وقالت ، وبحكايات ملفّقة مما يستطيعه المثقفون وغير المثقفين ، لا سيما بعد أن هجر الناسُ اللغة الفصيحة التى لا يستطيعها إلا المثقفون ، إلى لغة الأسواق التى لا يتميز فيها عالم من جاهل ، باسم الواقعية وباسم الشعبية . لذلك ، ولما

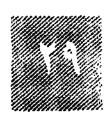
لمؤلف القصة من حرية واسعة فى تصريف أحداثها ورسم شخوصها ، أصبحت من أخطر الأدوات تأثيرا فى المجتمع • وتجرّأ على كتابتها القادرون وغيرُ القادرين ، والناضجون من أصحاب المواهب والتافهون من الأغرار والجهال • واندسّ بين هؤلاء كثير من مرضى النفوس ومن ذوى الأهواء ، وممن ينقلون حين يترجمون أسوأ ما قرءوا من قصص الغرب الرخيصة المبتذلة ، ولا يتكلفون حين يؤلفون أكثر من تغيير الأسماء • وبذلك أصبحت القصة معرضا للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأحط الغرائز ، وتعبيرا عن أمراض النفوس وانتكاس المعايير والتنفيس عن الشهوات •

وفى تأثير هذا القصص الماجن على الشباب يقول محمد توفيق دياب :

« قد يَعبَس الفتى أو الفتاة حيناً إذا قرأ أو قرأت مُجُونا جريئا عريانَ • ولكنْ إذا أَلِفَت العينُ والنفس أمرا كان مَبْعثا للحياء أمس فقد لا تلبث العينُ والنفسُ أن تنزَعا إليه وتطلباه • فإذا فقدت النفس نفورها من قراءة المخازى وتصُّور معانيها ، فقد هانت عليها المرحلة التالية ، وهى التلبُّس بهذه المعايب سلوكاً وعملا • وإذاً فعلى الصَّوْن والعفاف أَلْفُ عَفاء » •

والسلام عليكم ورحمة الله •





اللغة فى ميدان الصراع بين القديم والجديد

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

كان كل مادخل على العربية من فساد ، وما دخل على الشباب من بلبلة واضطراب ، قد أدى إلى ضعف شديد فى لغة القوم • ثم زعم الزاعمون للناس ، وللناشئة من الشباب على وجه الخصوص ، أن هذا الضعف يعود إلى سببين : أحدهما فيما يزعمون هو أن اللغة العربية لغة صعبة معقدة لايشبهها فى تعقيدها شيء من لغات الناس • والآخر هو أن العرب بين سائر أمم الأرض يُعانون من ازدواج ناشيء من أنهم يفكرون ويتعاملون بلغة عصرية عملية ، ثم ينقلون هذا التفكير إلى لغة أخرى قديمة معقدة حين يكتبون أدبهم وحين يسجلون علومهم • وقد تفرّع عن هذين الزعمين عدة شُعَب • ففى الزعم الأول الذى يدّعى صعوبة اللغة العربية قالوا إن صعوبتها ناشئة من أنها لغة مُعْرَبة ، فاقترح بعضهم التخفف من قيود الإعراب بتسكين أواخر الكلمات ، أو الاحتفاظ بالمهم من قواعد الإعراب والاستغناء عما دون ذلك • وذهب آخرون إلى أن الصعوبة آتية من قواعد اللغة العربية ومن طرق تدريسها ، وليس مصدره اللغة نفسها بطبيعة تكوينها • فاقترحوا إعادة النظر فى قواعد اللغة العربية : نحوها وصرفها ، وإعادة تبويبها وتشكيلها • وقال آخرون إن الصعوبة آتية من خطها لأنه لايُثبِتُ صور الحركات فى صُلْب رسم الكلمة • وقال قائلهم فى ذلك الكلمة المشهورة المنسوبة إلى قاسم أمين (كل الناس يقرءون ليفهموا ، والعربى يفهم ليقرأ) • وهذه العبارة ، ككل حججهم ليست من صنعهم • ولكنها ترديد لما جاء فى كتاب سْبِتَّا Spitta (قواعد العامية العربية فى مصر Grammatic des Arabischen Yulgardialectes Von Aegypten ومن هنا جاءت كل الاقتراحات التى تتعلق

بالخط • بعضها يقترح إثبات الحركات وتصويرها فى رسم الكلمات • فتُكتَب (محمد) موحاممادون فى حالة الرفع ، مع إثبات حركات الإعراب : (ان) فى النصب ، و (ين) فى الجر • وبعضها يذهب فى الغلو والشطط إلى الدعوة الى أن نتخذ الحروف اللاتينية كما فعل الكماليون فى تركيا •

أما الزعم الثانى الذى يرمينا بالازدواج ، ويدَّعى أننا نفكر بلغة عصرية عملية ثم نترجم هذا التفكير إلى لغة أخرى قديمة معقدة ، فهو وجهٌ من وجوه الزعم الأول وظاهرة من ظواهره • وأصحابه يدّعون أن اللغة العربية لغة ميتة معزولة عن التفاعل مع الحياة ومسايَرَةِ تطوراتها ، وعاجزةٌ عن الصلاحية لتدوين العلوم والمعارف الحديثة ، ووضع الأسماء لمستحدثات الحضارة العصرية • وأن الازدواج المزعوم يعطِّل ملكاتنا ويشلُّها ويعوق انطلاقها • وهو عندهم من بين أسباب تخلفنا وعجزنا عن الابتكار •

ولم يكن صحيحا مازعموه من تفرد اللغة العربية بالصعوبة والتعقيد بين اللغات الحية المعاصرة • والذى ألَـمَّ باللغة الألمانية أدنَى إلمام يعرف أن حالات الإعراب فيها تفوق العربية فى تَعدُّدها وصعوبتها وتعقيدها • والذى ألـمَّ بالفرنسية يعرف أن الفعل فيها يفوق الفعل فى العربية صعوبةً فى تفريعه وفى تصريفه وفيما يطرأ على آخره من زيادات • والذى يدرس اللغات التى فقدت ظاهرة الإعراب كالإنجليزية يعرف أن نَظْمَ الكلمات فى تعبيراتها ، واستعمال الحروف والأفعال فى مواضعها الصحيحة يفوق صعوبة الإعراب فى بعض اللغات الأخرى •

واقترح صانعو المشاكل لحل مازعموه من مشكلات أن نكتب آدابنا وندوِّن علومنا باللهجة التى نتكلمها ونتعامل بها • وضربوا اللغة اللاتينية مثلا • فقد ظل الأوربيون يدوِّنون بها علومهم ويكتبون بها آدابهم طوال العصور الوسطى ، بينما هم يستعملون فى معاملاتهم وفى حديثهم اليومي لهجات تختلف باختلاف بلادهم • إلى أن جاء عصر النهضة فعَدَلوا فى تدوين آدابهم وعلومهم عن اللاتينية الميتة إلى اللغة الحية التى كانوا يتكلمونها • ونشأت عن ذلك اللغات الأوربية الحديثة • وقد كان

اتخاذ هذه اللغات الحديثة ، الذى أعفاهم مما كانوا يعانونه من الازدواج ، من بين أسباب النهضة فى زعمهم •

ولقى هذا الاقتراح رواجا فى القصة والمسرحية على وجه الخصوص • فأصبح أكثر ما نسمعه منها وما نراه فى المسارح وفى الإذاعات مدَّونا بهذه اللهجات العامية فى كل بلاد العرب • ثم أصبحت المرافعات فى المحاكم والمناقشات فى المجـالس النيابية والخطب السياسية الرسمية تُلقَى وتُدوَّن بهذه اللهجات • ونشأ عن هذا الواقع الجديد فى أقسام اللغة العربية ومعاهدها دعوة إلى دراسة اللهجات العامية وتدوينها واستنباط قواعد تسجّل ظواهرها وتكشف عن طبيعتها وطرائقها فى التعبير • ونشأ عنه أيضا دعوة إلى دراسة ماسُجِّل من أدب العامة الذى يسمونه (الأدب الشعبى) • ووجدت هذه الدعوات طريقها إلى التنفيذ فى بعض الجامعات والمعاهد العربية •

وهذه المزاعم والتوجيهات كلها من صنع الاستعمار فى مختلف بلاد العرب ، لم يُسمَعْ لداعٍ بها صوتٌ قبل القرن الأخـير • بدأت الدعـوة بمقـال نشرتـه مجلـة (المقتطف) سنة ١٨٨١ م اقترح فيه كاتبه كتابة العلوم باللغة التى يتكلمها الناس فى حياتهم العامة • ثم هاجت المسألة من جديد حين ألّف القاضى (وِلْمور) كتابا فيما سماه (لغة القاهرة) سنة ١٩٠٢ م واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية • وتتابعت الكتب التى ألّفها المستشرقون فى تسجيل اللهجات العربية المختلفة وتدوين قواعدها • ولاكَ النـاسُ كلامهـم من بَعـدُ فرددوه ترديد الببغاوات • ووجد فيه الجيل الناشىء من شباب العرب عذرا يعفِيهم من التحصيل ، وحجةً تبرِّر ضعفهم فى لغتهم التى تجتمع فيها صفتان لاتجتمعان فى لغة من اللغات المعاصرة هما : الدينية والقومية • وانتهى الأمر بالناس إلى اتخاذها موضوعا للسخرية والدعابة والفكاهة فى مسرحياتهم ومجلاتهم وأسمارهم ، يضعونها على ألسن الـذين يقومون بتمثيل معلِّم العربية أو المنتسب للدين ، ويختارون لهم أسـخف الـكلمات

وأكثرها غرابة وحُوشيّة وتَقعُّرا لتبدو كأنها دويّ المدافع والقنابل فى حديقةٍ للورود والرياحين ٠

فى ظل هذه الدعوات والمزاعم كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة ، التى يقول فيها ، متحدثا بلسان اللغة العربية :

رجعتُ لنفسى فاتّهمتُ حَصَاتي ... ونـاديتُ قومى فاحتسبتُ حياتي

رمَوْنى بعُقْمٍ فى الشباب ، وليتنى ... عَقِمتُ فلم أجزَعْ لقول عُداتي

وَلَدتُ ، ولما لم أجِدْ لعرائسى ... رجالا وأكفاءً وأدتُ بناتي

وسِعْتُ كتاب الله لفظًا وغايةً ... وما ضِقتُ عن آىٍ به وعِظَاتِ

فكيف أضيق اليومَ عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لمخترعات ؟

أنا البحر ، فى أحشائه الدرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاص عن صَدَفاتي ؟

فياويحكم ! أبلَى وتَبلَى محاسنى ... ومنكم – وإن عزَّ الدواءُ – أُساتي

فلا تكِلونى للزمان ، فإننى ... أخاف عليكم أن تَحِينَ وفاتي

أرى لرجال الغرب عِزًّا ومَنْعَةً ... وكم عَزَّ أقوامٌ بِعِزِّ لغات

أتَوا أهلهم بالمعجزات تَفنُّنا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

أيُطرِبكم من جانب الغرب ناعب ... يُنادِى بوأدى فى ربيع حياتي ؟

ولو تَزْجُرون الطيرَ يوماً عرفتُمو ... بما تحتَه من عَثْرةٍ وشَتَات

سقَى الله فى بطن (الجزيرة) أعظُما ... يَعِزُّ عليها أن تلين قناتي

حفِظْن وِدَادي فى البِلَى وحفِظتهُ ... لهن بقلبٍ دائم الحسرات

وفاخرتُ أهل الغَرْب ، والشرقُ مُطرِقٌ ... حياءً ، بتلك الأعظُم النَّخِرات

أرى كلَّ يومٍ (بالجرائد) مَزْلَقاً ... من القبر يُدْنينى بغير أناة

وأسمعُ للكُتّاب فى مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نُعَاتي

وقد كان من أعجب العجب أن تظل العربية الفصيحة جامعة لشمل العرب ومصاحبةً لهم ومؤدية لوظيفتها أكمل أداء فى كل حواضرهم التى انتقلوا إليها على

اتساعها وتنوعها ، وعلى كثرة ماأبدعوا من علوم وفنون ، لايخطر ببالهم عجزُها أو قصورُها فى أى ميدان من هذه الميادين • ثم يكتشفون فجأةً بعد ثلاثة عشر قرنا مشكلاتٍ فى كلماتها وفى قواعدها وفى خطها ، يتعذر معها أنِ تستمر فى الحياة •

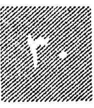
ولم يكن للدعوات التى بلبلت فكر الناس وزعزعت يقينهم وإيمانَهم إلا هدفٌ واحد يسعون إليه من كل وجه وبكل وسيلة • وهو محاربة الفصحى والتخلص منها ، دَفعةً واحدة إن أمكن ، وبالتدريج إذا استعصى ذلك • فهم تارة يدعون إلى العامية دعوة صريحة • وهم تارة أخرى يدعون إلى التوسط بين الفصحى والعامية • وتارة يدعون إلى فتح باب التطور فى اللغة ، والاعتراف بحق الكتّاب فى تغييرها كيفما كان هذا التغيير وإلى أى مَدىً ذهب • وتارة يدعون إلى اسقاط أبوابٍ معيّنة من النحو ، أو تعديل بعض قواعده • فإذا لم ينجحوا فى شىء من ذلك اكتفوا بالدعوة إلى دراسة اللهجات العامية وحصر مفرداتها وأساليبها ووضع القواعد والمعاجم لضبطها وإحصائها ، أو الدعوة إلى أن يقتصر كلُّ بلدٍ عربى من الفصيح على المستعمل فى لهجته المحلية • وبذلك يصبح لكل بلد عربى معجم لغوي خاص •

وقد تصور بعضُ السُّذَّج أو الدُّهاة ـ لا أدرى ـ أن العلاج الذى نستهدفه هو توحيدُ العامية والفصحى وجعلهُما لغة واحدة • وهو خطأ أساسي فى تصور الموضوع • فليس مطلوبا أن تصبح لغة الحديث والأسواق والتعامل بين الناس هى نفسُها لغة الشعر والأدب والعلم والفلسفة • لأن التعامل يحتاج إلى لغةٍ سريعة الوفاء بالغرض • ولكنه لايحتاج إلى لغة دقيقة كحاجة العلم إليها • ولا يحتاج إلى لغة جميلة مؤثرة كحاجة الشعر والأدب عموماً إليها • إذ يكفى فى لغة التعامل أن يفهم بعضُ الناس عن بعضٍ من أقرب طريقٍ وأخصره • ومن الواضح أن لغة الأسواق لا تناسبها لغةٌ راقية معقّدة ، لأن قواعد اللغة الراقية تضيّع وقت المتعاملين الذين لا يحتاجون للدقة أو الجمال حاجتَهم إلى السرعة • فاستعمالهم الفصحى فى التعامل إسراف فى التأنق وبعثرة للجهد وتضييع للوقت ، لا يصبر عليه البائع ولا المشترى • ثم إن اللغة الراقية التى تنَظّمها القواعد الثابتة لا تصلح لحاجات الحياة اليومية من

وجهٍ آخر • فقواعد اللغة الفصحى تجعل تطورها بطيئا وصعبا ، بينما لغةُ التعامل والأسواق تسد حاجات متغيرة يطرأ عليها كلَّ يومٍ جديدٌ لم يكن بالأمس • أما لغة الأدب فهى سِجِلٌ لحالات عقلية ونفسية ثابتة متصلة ، من الخير أن نحرص فيها على صلة الخَلَف بالسَلَف إلى أبعد مدًى ممكن • ومن هنا يبدو كذبُ دعوى الازدواج • فلغة الأسواق شيء ولغة الأدب والعلم شيء آخر • وكلٌّ منهما صحيحة فى ميدانها • وهذه ظاهرةٌ مطَّرِدةُ التحقُّقِ واللزوم فى كل اللغات ، قديمها وحديثها ، شرقيِّها وغربيِّها • وليست العربية بِدْعاً فى ذلك كما يدَّعون • ولو اتُّخِذت لغةُ الأسواق لغةً للأدب على ما يريده الخادعون والمخدوعون فتطورت وارتقت ، لنَشأ إلى جانبها حتماً لغةٌ أخرى للأسواق تتحرر من قواعد اللغة الأدبية وقواعدها • وذلك هو ماحدث بعد أن انفصلت اللهجات المحلية عن اللاتينية وأصبحت لغاتٍ مستقلة • فلم يمض على ذلك وقت طويل حتى تطورت هذه اللهجات ونضجت وارتقت ثم خلّفت وراءها لهجات عامية جديدة •

أما الأدب الشعبي فحقيقته الأصيلة أنه أدب سطحي بسيط ، يغلب عليه الارتجال والعَفْوية ، ويلائم السذج من عامة الناس • ولكنه لايشبع حاجات المثقفين وطلاب المعرفة من أصحاب الفكر الرفيع والذوق الصافى الصقيل • وقد يصلح أن يكون فاكهة تُساقُ لهم يجدون المتعة فى تصويره الصادق لسذاجة البيئات التى نشأ فيها • وهو صحيح فى موضعه لايُغْنِي غَنَاءه فيه شيء • ولكنه فى كل حال لا يُغني عن الأدب الفصيح الذى يصور فكراً أعمق ، وصنعة أدق وأحكم ، ولغةً أبقى على الأيام وأدْوم • ومن الخير للأدب الشعبى أن يظل فى مكانه الصحيح كما كان دائما ، أدباً شفوياً يعتمد على الرواية • ولا خيرَ فى تسجيله • لأن لغته متغيرة غير ثابتة ، تؤدى وظيفتها لأجلٍ محدود ، ثم تموت ، وتحل محلها مفردات وأساليب جديدة من وَحْى ظروف جديدة • فالدعوة إلى تسجيله لا تخدم إلا هدفا واحدا ، هو مزاحمة الفصحى ومحاربتها وإعداد البديل الذى يحل محلها إذا حان الوقت • وهيهات •

والسلام عليكم ورحمة الله •



رد على دعاة تطوير اللغة وتطوير الخط

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

ليس فى مزاعم أعداء اللغة العربية جديد • فهم يكررون ما بدءوا به ولا يضيفون إليه جديدا • ويعتمدون فى أسلوبهم على أن الناس إذا تكرر سماعهم للباطل أوشكوا أن يصدقوه • لذلك فهم يكررون القول حينا بعد حين ، ودَفعة بعد فَتْرة ، لا يسأمون من التكرار ولا يملّون • ولذلك كان فرضا لازما على أصحاب الحق أن لا يَملّوا من تكرار الرد عليهم رُكونا إلى أنهم قد أذاعوه من قبل ، حتى لا تنفرد دعايتهم المفسدة بالشباب فتستأثر به ، ثم لا تجد ما يصححها وما ينتشله من البلبلة والتمزق والحيرة التى تتّسم بها (أزمة العصر) •

والرد على ما ساقه أعداء العربية وأعداء أنفسهم يتلخص فيما يلى :

١ ـ إن عامة المسلمين وخاصتهم لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وسائر كتب الدين •

٢ ـ ليست العربية غريبة على أفهام العامة إلا إذا أريد التقعّر واستخدام الألفاظ الغريبة • أما لغة الإنشاء العصرية فهى شائعة فى الصحف والمجلات والكتب ، يفهمها الخاص والعام •

٣ ـ لا يجوز قياس العربية على اللاتينية • لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعد كثيرا من الفرق بين العربية الفصحى وفروعها العامية • فالعامي الإنجليزى والفرنسي ينظر إلى اللاتينية نظرته إلى لغة غريبة • أما العامي العربي فإنه يفهم الفصحى • وإذا فاته فهم بعض الألفاظ فإن المعنى الإجمالى يندر أن يفوته •

٤ ـ الزعم بأن اللغة العربية بِدْعٌ فى اللغات ، بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللهجة المحكيَّة زعم باطل • فلكل أمة لغة للعلم والثقافة والأدب تختلف عن لهجة الحديث والأسواق • وكذلك كان الشأن فى العربية منذ الجاهلية • فكان للعرب لغة أدبية موحَّدة يكتبون بها أشعارهم غيرُالتى يتحدثونها فى أسمارهم وفى معاملاتهم ، والتى ربما استعملوها فى أدب مَحَلِّىٍّ يتمثل فى أرجازهم • وهذا هو السبب فى إهمال كتب الأدب للرجز واحتقارها له وتسميته (حمار الشعر) • وهو السبب أيضا فى ترفُّع الشعراء الكبار عن تناوله بعد أن يذيع صيتهم وتعلو مكانتهم • فتَجاوُرُ لغة الأدب ولهجة الحديث أمرٌ واقع وظاهرة طبيعية • وكلٌ منهما صحيح فى ميدانه •

٥ ـ القائلون بأن يتخذ كل بلد عربى لهجته العامية هم القائلون بانحلال العالم العربى وتشتيت شمل الذين يتكلمون العربية من العرب والذين يقدِّسونها من المسلمين • وقد أصبح واضحا للمسلمين وللعرب أن عليهم أن يختاروا بين أن يكونوا يدا واحدة على عدوهم ، أو يكونَ بأسُهم بينهم ثم يصبحوا طعاما لذلك العدو • وبين أن تكون علاقاتهم بأبناء جنسهم علاقة أخُوّة ، أو تكون علاقتهم بالأجنبى علاقة عبودية وتبعية • لأن الصداقة لا تكون إلا بين الأكفاء والمتناظرين •

٦ ـ القواعد النحوية التى يزعمون أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة ، أنتج الناس خلالها فى مختلف الأمصار الإسلامية ثروة من الكتب العربية الصحيحة لا تحصى • وهذه القرون المتطاولة أصدقُ شهادةً لصلاحية النحو من كل ما يزعمون • فهذه القواعد النحوية قد فرضتها صلاحيتُها • ولم تفرضها قوى قاهرة كالقوى التى تفرض باطل أصحاب هذه المزاعم وتروّج له • وعليها قامت النهضة الأدبية الحديثة • ومن المحقق أن الجيل السابق الذى نشأ على توفير قواعد اللغة وإتقانها خير من هذا الجيل الذى لا يزال يتقلب بين مشاريع وتجاريب للتبسيط والتيسير ، تحتاج إلى ألف عام لكى تثبت أنها لا تقل عن القواعد التى يُقتَرح الاستغناءُ عنها ، فضلاً عن أن تفضُلها أو ترجَحَ عليها •

أما الدعاوى التى تتصل بالخط العربى فيتلخص الرد عليها فيما يلى :

١ ـ ليس من السهل إعادة طبع التراث العربي ـ وعمره يزيد على أربعة عشر قرنا ـ بالحروف الجديدة · سواء كان ذلك فى العرب أو فى غيرهم من البلاد التى كتبت آدابها وعلومها بالحروف العربية ·

٢ ـ لو هجرنا الحروف العربية إلى حروف تخالفها لنُسيت الآداب والعلوم القديمة ، كما نُسيت آداب الهيرغليفية والبربرية والفينيقية والفارسية القديمة ، وغيرها من آداب اللغات الأخرى التى لا يستخدم الناس حروفها الآن ، ولأصبح بيننا وبين تراث أجدادنا سدٌ منيع تعانيه الأجيال المقبلة كما نعانيه نحن فى تلك اللغات · فاللغات التى حلّت الحروف العربية فى كتابتها محل حروفها القديمة كالتركية والفارسية والأُردية وغيرها ، قد نُسِيَتْ آدابها القديمة وأصبح بينها وبين آدابها الإسلامية حلقة مفقودة ·

٣ ـ الخط العربى موافق لطبيعة اللغة العربية · ولو أردنا استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتحتم علينا إيجاد حروف جديدة نضيفها إلى الأبجدية اللاتينية الحالية ، لكى تعبر عن الأصوات العربية التى لا تمثلها الحروف اللاتينية ، مثل : ج ، ح ، خ ، ش ، ط ، ظ ، ص ، ض ، ع ، غ ، ولاحتجنا إلى التمييز بين الحروف المتحركة الممدودة وبين الحروف المتحركة القصيرة ، لنميّز الفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو ·

٤ ـ محاكاة العرب للترك فى هذا الصنيع تقليد أعمى · لأن سبب هذا التغيير عند الترك سياسي · وهو محاربة العنصر العربى والدين الإسلامى · فهم يريدون أن يزعموا أن المدنية التركية مدنية عريقة تتصل بالمدنيات البابلية والآشورية القديمة · ولا اتصال لها بالتمدن الإسلامى · ولذلك اقترن هذا التغيير بكثير من الظواهر المؤدية إلى الغرض نفسه ·

٥ ـ ليس من السهل أن يتفق العرب والمسلمون على شكل جديد موحد فى

الكتابة . لأن المصحف مكتوب حتى الآن بالرسم العثماني . والمسلمون لا يريدون أن يفتحوا ذرائع للفتن ، بإدخال أى تعديل على هذا الرسم . ولا يريدون أن تكون للمصحف قواعدُ خاصة غيرُ قواعد الكتابة العامة تحيلُه إلى كتاب مهجور . وإذا انفردت إحدى البلاد العربية أو الإسلامية بالتعديل المقترح كان ذلك سبب قطيعة مزدوجة ، إذ يقطعها عن تراثها الإسلامى والعربى الماضي ، كما يقطعها عن عالَمها الإسلامى والعربى الحاضر ، مع ما تستتبعه هذه القطيعة من آثار سياسية واقتصادية فى إقامة سدٍّ بينها وبين جاراتها ، وفى كساد صحفها وكتبها وكل منشوراتها .

٦ ـ إثبات الحركات فى صلب الكلمات يضخم حجم الكتاب العربى ، ولا سيّما إذا أضيف إليه إثبات الإدغام والتنوين . وكل ذلك دون طائل . لأن قواعد الكتابة الراهنة تفى بالغرض ، ولا يحتاج القارئ معها إلا إلى قليل من علامات الضبط كلَّ بضعة سطور ، عند خوف اللَّبْس . على أن التيسير المقترح لا يُغنى الكاتب عن تعرُّف الصواب من طريق القواعد النحوية والصرفية . ومع العلم بهذه القواعد لا حاجة إلى الطريقة المقترحة . ومع الجهل بها لا عصْمةَ للقارئ ولا للكاتب .

٧ ـ مُطَابقةُ الصوت المسموع للصورة المقروءة أكثر توافرا فى اللغة العربية منه فى سائر اللغات التى يريد دعاة التطوير أن يقلدوها . ولو اتخذنا أمثلة من اللغة الإنجليزية لوجدنا أنها :

أ ـ تهمل نطق كثير من الحروف مثل h فى honour و gh فى right و through و k فى knife ، و b فى climb .

ب ـ وهى بعد ذلك تصور الصوت الواحد فى صور متعددة . مثل الكسرة الطويلة التى تكتبها العربية (ى) فهى تكتب فى الإنجليزية ee ، ea ، ei ، ie ، e-e ، y-e ، والكاف فى العربية تكتب فى الإنجليزية c ، k ، ck ، q ، Ch .

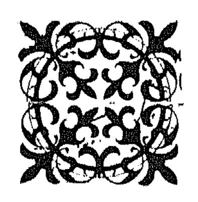
جـ ـ ثم إن الحرف الواحد يُنْطق فى صور متعددة . فحرف c ينطق (س) و (ك) . وحرفا th ينطقان (ذ) و (ث) .

د ـ ثم ان هناك اصواتا ليس لها حروف تقابلها • لذلك يستعان على تصويرها بأكثر من حرف مثل sh لحرف ش ، th لحرفى ذ ، ث •

والخط العربى ليس من ذلك كلّه فى شىء • فكل حرف فيه منطوق • ولكل صوت حرفٌ واحد يصوّره • والحرف من ناحية أخرى لا يُنطق إلا على وجه واحد ، وبصورة صوتية ثابتة لا تتغير •

أما حروف الحركة (vowels) فهى فى الإنجليزية مُربكة ومضلِّلة بأكثر مما هى معينة على الضبط • فحرف (a) مثلاينطق على أشكال مختلفة فى (war) ، (rat) ، (Shame) • وكذلك حرف (u) فى (nut) ، (mule) ، (sure) ، (survey) ، (minute) • وكذلك حرف (i) فى (sin) ، (sir) • وحرفا (ea) فى (wear) ، (heart) ، (bread) ، (fear) • وحرفا (oo) فى (blood) ، (poor) ، (floor) •

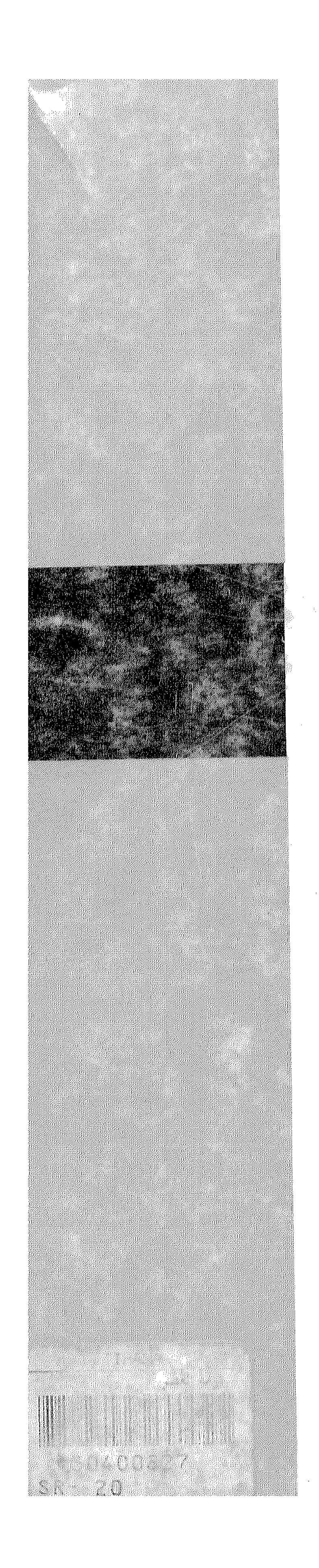
إن الأمم العريقة التى تحرص على تراثها تتجنب كل ما يؤدى إلى إحداث هُوَّة تفصلها عنه • لذلك ظل الإنجليز يحافظون على هذه المفارقات التى أشرت إلى أمثلة منها فى رسم الكلمات ، فى الوقت الذى يتخلص فيه الأمريكيون من كل هذه المفارقات ويرسمون الكلمات كما ينطقونها تماما • ذلك لأن الإنجليز يحرصون على أدبهم القديم المكتوب بهذه الصورة التاريخية • أما الأمريكيون فليس لهم قديم يحرصون عليه •

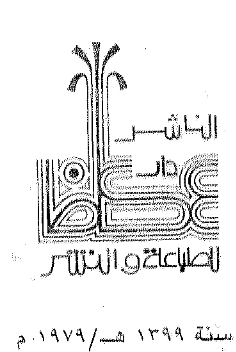


فهرس الموضوعات



طبعت بدار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة





سنة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م